السيرة الذاتية

لما طلب مني تقديم سيرة ذاتية لموقع الإنترنت، الذي أوجدته اللجنة الوطنية لمساندتي بغية تطويق المحاصرة الشاملة التي أتعرض لها على كل المستويات منذ اكثر من عشر سنوات ، شعرت بما اشعر بحرج مشاب بالانزعاج يتمازج فيه الزهو والخيلاء

ثمة حاجة عميقة في كل واحد منا بأن يكون تحت الأضواء، أن يكون مميزا ومتميزا وممتازا، وتسمي اللغة هذه الحاجة بالنرجسية وكم نكرهها عند الآخرين وكم نتسامح معها عندما تكون نرجسيتنا

لا أعرف حاجة أعمق وأقوى في البشر من هذه الحاجة وربما تكمن الإشكالية الاجتماعية الكبرى أننا لم نجد طريقة للتداول كلنا على دور البطل .

وثمة حاجة عميقة أخرى تعمل في الاتجاه المعاكس هي إرادة البقاء "مستورا" لأن بنا حياء فطري يجعلنا نخفي وراء ستار سميك من التصرفات والألفاظ عيوبنا المتعدّدة ونوا قصنا الكثيرة وهشاشتنا الطبيعية و كل هذا الجزء المظلم من شخصيتنا الذي ليس لنا ما نفاخر به أمام الناس.

ربما كان الحق في الغموض من حقوق الجيل الرابع أو الخامس التي لم تدوّن إلى حدّ الآن في الإعلان العالمي لحقوق الإنسان ومن هذين المطلبين المتناقضين ينشأ الخلل الهيكلي والقارّ في كل صورة نكوّنها عن الآخر أو نريد إعطاءها عن أنفسنا .

تأتي السيرة الذاتية أحيانا كعملية نصب بأتمّ معنى الكلمة عندما نركّز على الوجه الوضاء ونغفل كل ما هو ناقص وسلبي والحال أنه جزء قار ثابت مكوّن من إنسانيتنا.

الإشكالية أن الآخر ليس أكثر منك "موضوعية" عندما يكتب سيرتك الذاتية. وصدق من قال :

وعين الرضا عن كل عيب كليلة ولكن عين السخط تبدي المساوئ

هو سيسلط الأضواء على كل إيجابي فيك إن كان ينظر بعين الرضا، وعلى المساوئ إن كانت عين السخط هي التي تحدّق فيك باستهجان . كل ما يرسم للشخص إذن أكان من رسمه أو من رسم الآخر مجرّد صورة من بين صور كثيرة ممكنة .أما الشخص "الحقيقي "الذي تحاول السيرة الذاتية الاحاطة به فهو كائن مبهم ، محكوم عليه إلى الأبد أن يبقى غامضا .كيف يكون واضحا للآخرين وهو مجهول لذاته ذاتها ، لا يزيد تعدّد الصور التي تؤخذ له إلا غموضا على غموض .

حتى لا نحبط عزيمة القارئ وننشر الغصن الذي نجلس فوقه ، لأننا لم نكتب هذا النص إلا ليقرأه، فإننا سنقول للخروج من هذه الإشكالية المنهجية المزعجة، أن هذه السيرة الذاتية بمثابة بيت أنت فيه على الرحب والسعة ، لكنه لن يفتح لك المستودع الذي تنام فيه الأشياء التي لا يرغب صاحب البيت في إظهارها .

وفي كل الأحوال فإن ما سيرضى صاحب البيت بإظهاره يفضح المستوى والذوق وفيه من المعلومات عنّا ما يرضينا وما لا يرضينا لأن العين لا تسجل كالكاميرا وإنما تحلل وتستنتج وفق شفرة تفسير خاصة بكل ذات ليس لصاحب البيت عليها سلطان

معنى هذا أنني سأكون مضيفا لا أبخل لا بالصدق ولا بالكرم ، راجيا أن يكون حكمكم على ما يوجد في الصالون وطريقة ترتيب الأثاث متسامحا قدر تسامحي مع الناس اللذين عاملتهم دوما بقول من قال : غض الطرف عن عيب أخيك يرحمك سيد الخلق.

****

والدي محمد البدوي المرزوقي أصيل مدينة دوز بالجنوب التونسي وينحدر من قبيلة عربية يقال أنها فخذ من بني سليم الذين قدموا إلى تونس في القرن التاسع مع أبناء عمومتهم بني هلال ولا زالت آثار هذا الزمن السحيق واضحة في لهجة دوز حيث لا أعرف قرية أخرى يتحدث فيها الناس - النساء خاصة -لهجة عربية بمثل هذا الصفاء وتبلغ حد

استعمال نون التأنيث وهو ما يجعلها جد قريبة من الفصحى.

كان زيتونيا ، عمل مؤدب أطفال فترة الحرب العالمية الثانية ،ثم وكيلا عدليا ومارس الصحافة زمنا لكنه كان بالأساس مناضلا سياسيا .هو أول من كوّن خلية الحزب الدستوري في دوز في الثلاثينيات وكان منخرطا في المقاومة المسلحة يجمع السلاح ويخبئه في بيتنا . أذكر أنه كان يأخذني للتجمعات الضخمة وأنا لا أتجاوز التاسعة وأنني وقفت مرة بين رجلي صالح بن يوسف وهو يلقي خطابا ناريا من شرفة دار في باب منارة . انخرط في الأمانة العامة عندما انقسمت الحركة الوطنية عشية الاستقلال وكان قريبا جدا من زعيمها الشهيد صالح بن يوسف الذي أمر بورقيبه باغتياله .وكان الشهيد يوفد والدي المرار العديدة للمغرب الشقيق كممثل له

الوالد مع المغفور له جلالة الملك محمد الخامس سنة 1956

عند انتصار الشق البورقيبي لم يجد من حلّ غير الفرار إلى المغرب بعد أن أتته الأخبار بأنه على قائمة الاغتيالات وعاش في البلد الشقيق33 سنة مكرما معزّزا كوكيل عدلي أمام المحاكم الشرعية ، لكن مع شعور حارق بالظلم والغبن والنفي .مات بعيدا عن الأرض التي ساهم بالقلم والسلاح في تحريرها ودفن في مدينة مراكش.

كان معروفا بالشجاعة والذكاء الحاد والثقافة الواسعة وكان وسيما بالغ الأناقة، بالغ الاعتداد بنفسه وصاحب شخصية طاغية جعلت منه أول دكتاتور أواجهه . وكانت علاقتنا مبنية على المحبة العميقة والصراع الدائم وهو الصراع الذي انتهى بفوز ساحق للديمقراطية عندما فرضت عليه في العشرين حرية إبداء رأي مخالف له دون أن ينتهي النقاش بخصومة رهيبة وفي الثلاثين فرضت حق اختيار زوجتي وهو ما نسميه اليوم بلغة حقوق الإنسان حق التنظم . أما الانتصار الساحق فقد تم وقد جاوزت الأربعين عندما أصبح لي الحق في ممارسة التداول السلمي على السلطة واخذ القرارات بدله في كبريات قضايا العائلة .

لكن هذه الانتصارات الديمقراطية توقفت عند استحالة الحصول على حق التدخين بحضرة الجناب وهو ما كان يضطرني وقد تجاوزت الأربعين إلى الخروج لتدخين الغليون في بهو البيت لأنه كان يعتبر التدخين بين يديه انتهاكا لقدره .

وبالمقابل كانت والدتي عزيزة بن كريم امرأة لها من اللين ما كان لوالدي من الشدة ومن الصبر ما كان له من نفاذه لا تشاركه إلا في الذكاء الحادّ وفي قدرة المناظرة والحجة رغم أنها لم تذهب يوما إلى مدرسة .

لا أعرف كائنا أثّر في تكوين شخصيتي قدر هذه المرأة التي لم اسمعها يوما تغتاب أحدا أو تشتكي من شيء رغم تهاطل المصائب عليها مثلما لا أذكر منها نصيحة واحدة . كانت نادرة الكلام منكفئة على وقار دائم، تعلم بصمت وتصوغ شخصية أطفالها بالمثل الذي كانت تقدمه وهي تتفانى في عملها وفي تضحياتها لا تنتظر جزءا أو شكرا.

ومن زواج الماء والنار ولدت يوم 7جويلية 1945 بقرنبالية وسيولد لي أربعة أشقاء وسبعة أخوة من أكثر من أم في تونس وفي المغرب إذ كان والدي مزواجا مطلاقا على الطريقة الشرقية القديمة. وكان الأمر لعنة كبرى على والدتي تمخض عن خير كبير لي إذ لا أفخر بشيء قدر فخري اليوم بعدد أخوتي وتوزعهم على تونس والمغرب مشكلين عائلة

مغاربية حققت الوحدة المنشودة.

بصفة عامة كانت طفولتي غير سهلة أو سعيدة والوالد بين سجن ومنفى ونحن نتخبّط في فقر مدقع كالأغلبية الساحقة من التونسيين في بداية الخمسينيات لكن في ظلّ الخطر المتواصل، حيث كان بيتنا مستودعا لسلاح المقاومة وكانت أمي تعيش في رعب متواصل من مداهمات البوليس.

وفي الواقع فإن هذا الخطر لم يتبلور إلا سنة 1955 عشية الاستقلال والصراع المرير على السلطة بين اليوسفيين والبورقيبيين .فقد تعرضت لمحاولة اختطاف من قبل مجهولين وتعرض والدي للتهديد بالقتل كما أسلفت فكانت فترة عصيبة تنذر بما سيتتابع من فترات عصيبة .وفي سنة 1956 بدا الاستقلال بالنسبة لي كحفلة مظلمة لا تعني شيئا خاصة وأنا أقاد لمركز البوليس السري لأول استجواب في تاريخي القصير .وأذكر أن المحقق تلطف معي كثيرا وأنه نظر لحذائي وقال لي بكثير من الرقة إذا قلت لنا أين ذهب والدك فسأشتري لك حذاءا جديدا . ولا أدري هل لمع في عينيّ آنذاك كل الاحتقار والاشمئزاز الذي شعرت به تجاهه وهل أدرك أن هذا الطفل الذي لم يتجاوز التاسعة قد شعر بإهانة لن يغفرها له طول حياته. وقد رويت القصة لأحفاد هذا البوليسي وهم يستجوبونني مفتعلين اللطف وقد تجاوزت الأربعين مذكرا أنني لا أبيع أبي ولا وطني بحذاء جديد.

وفي سنة 1957 حصل أخطر تحول في حياتي حيث وجّهت إلى المدرسة الصادقية بالعاصمة . ولم يكن لي ادنى فكرة عن هذه المدرسة ولا أظنّ ان حتى والدتي كانت تعرف، وهي تتلقى نبأ قبولي فيها، أنها مدرسة النخبة لا يوجه إليها إلا أنجب التلاميذ. وكانت بحق مع العلوية المدرسة التي تعرك كل الفوارق الاجتماعية متيحة نفس الحظوظ لأطفال الفقراء في الوقت الذي تعطيهم تكوينا لا يحلم به أطفال اليوم.

إلا أن المسالة كادت تتوقف عند شهادة النجاح في مناظرة الدخول للثانوي إذ لم يكن لوالدتي ما تدفع به ثمن الاشتراك في القطار حيث كنا نسكن مدينة حمام الأنف ولم يكن هناك أي إمكانية لنسكن تونس ونحن نعيش على كرم أخوالي ووالدي عاجز في تلك الظروف على أن يمدنا بأي عون .

يشاء الحظ أن لا يقف بي قطار الحياة عند مسالة اشتراك سنوي في قطار الأحواز فتبيع والدتي كل ما تملك من حليّ لأدخل المدرسة العريقة التي ستغير مجرى حياتي .

لا شكّ أنني لن اوفي أبدا بالدين المتخلّد بذمتي تجاه المدرسة الصادقية وتجاه أساتذتي فيها واذكر منهم الأساتذة تاج الدين المختار وأحمد العربي في اللغة العربية و بلونزي في الفرنسية وبودن في التاريخ والجغرافيا وزغندة في العلوم الطبيعية . فقد كانت كفاءتهم العلمية والبيداغوجية من طراز قل نظيره .وهم الذين علموني حب المعرفة وقواعدها الأساسية ولهم مني أحياء أم أموات عرفان لا نهاية له . وقد أردت دوما أن أعبر عنه بمحاولة التشبه بهم والعمل على منوالهم في نقل المعرفة إلى طلبتي بتلك الشدة الرقيقة والمحبة والإخلاص الذي كان يطبع كل تعاملهم مع تلامذتهم .

لم تكن فترة الصادقية التي امتدت إلى سنة 1961 سهلة .فكم من طفل اليوم ، ينهض في الخامسة صباحا والليل ما زال مرخ سدوله ، ليأخذ قطار الأحواز في السادسة ، حتى يكون أول من يدخل القسم ، ويبقى في الشارع فترة انقطاع الدوام يقضم قطعة خبز جاف كغذاء منتصف النهار ، ولا يعود للبيت إلا في السابعة ليلا ليعمل على دروسه إلى العاشرة . إلاّ أنّ هذه الفترة نمّت الاستقلالية وتحمل الحياة الصعبة والانضباط لأن القطار لا ينتظر من يخلف موعده ونمت فيّ خاصة عادة القراءة اليومية إبان السفر- الطويل يومها - والتي ستصبح عادة مستحكمة ثم نهما يكاد يكون مرضيا . ورغم هذه الصعوبات فإن المدرسة كانت توفر لي قسطا كبيرا من المتعة وهي تشبع فضولي الجارف إلى العلم وتوقي إلى التفوق . وإبان السنوات الأربع فرضت سيادتي المطلقة على عرش الإنشاء العربي والفرنسي في حين كنت اقنع بالمرتبة الأخيرة في الرياضة . ومن أين لي التفوق فيها والحال أنه لم يكن يعنيني في الوجود شيء قدر التهام القصص التي كنت أستعيرها من مكتبة العطارين ...جالسا أو مستلقيا على الفراش وهما وضعيتان قلما تعدّان لنيل الميداليات الرياضية ..

أتذكّر إلى اليوم دهشة المكلف بالكتب وهو يرى هذا الطفل الغريب يخرج بالقدر الأقصى المسموح به من الكتب ليعود من الغد أو بعد الغد على أبعد تقدير لحمولة جديدة .

وفي الصادقية أسّست أول حركة سياسية تناضل ضد البورقيبية التي أصبحت مقاومتها مسالة ثأر شخصي .كان حزبي يتألف مني أنا الزعيم الأوحد ، ومن طفلين في الثالثة عشر من العمر مثلي ، هما يوسف الصديق وعبد الحق

شريط، ولم يكن من الغريب أن يكونا من الجنوب ومن أفقر التلاميذ بحكم قانون : إن الطيور على أشباهها تقع . وكانت حركتي هذه متطرفة ، منتصرة لروسيا ضدّ أمريكا ، تنادي بالوحدة العربية التامة والشاملة والفورية وترفض باشمئزاز شديد فكرة الأمة التونسية ، ولا تقبل بفكرة الوحدة المغاربية إلا كخطوة أولى نحو الوحدة الكاملة وتخطط لغزو إسرائيل ومحوها بالقنابل الذرية وتتبادل كل يوم أخبار صوت العرب من القاهرة ، وتدرس ظروف التسلل للجزائر للمشاركة في الحرب وقهر الاستعمار والإمبريالية ، و تسمي بورقيبة باسمه وبأسماء قبيحة ، أما لقب سيادة الرئيس ، فكان يعني آليا بطل العروبة جمال عبد الناصر لاغير (وقد بقيت وطنيته ونظافته تغفران إلى اليوم أخطاءه دون أن تبررها خاصة حكم المخابرات والتعذيب الوحشي في السجون المصرية) . وللأسف الشديد فإن هذه الحركة الواعدة لم تلبث أن دخلت في انقسامات وصراعات داخلية عصفت بها حيث انقسمت لا على الأفكار والمبادئ وإنما كما هو الأمر عادة على موضوع الزعامة .وآثر يوسف الصديق الانسحاب من المعركة ليتفرّغ للتفكير الفلسفي الذي لم يغادره منذ ذلك اليوم .وبقيت المعركة على أشدها بيني وبين عبد الحق شريط الذي انهزم سريعا –ثم دخل بعدها الحزب الدستوري- وهكذا بقيت زعيما بدون منافس في حزب بدون أتباع وأنصار .

وفي السادسة عشر انتهت فترة الصادقية عندما قرر والدي ، انه آن الأوان لخروج كل العائلة والالتحاق به في المغرب وقد فقد كل وهم ، بعد اغتيال صالح بين يوسف سنة 1961، حول العودة إلى تونس مظفرا ومنتقما .هكذا غادرنا تونس بفرح وفي القلب لوعة لا تتحمل مواساة .

كان الفرح ناجما عن خلاصنا من وضع أصبح غير قابل للتحمل .فقد كانت دارنا تعرف بدار الخائن وكان والدي الذي قدم كل شبابه لاستقلال الوطن منعوتا بالأصابع في أحاديث الناس .وكان الفقر المدقع الذي كنا نعيش فيه جزءا من كابوس دام سنوات .أما اللوعة فكانت تتعلق بكل ما كنا نفقده بالهجرة : الأحباب والعائلة وخاصة بالنسبة لي المدرسية الحبيبة التي لم تكن تفرق بين أبناء "الخونة " مثلي وأبناء الوطنيين الذين كان لبعضهم باعا طويلا في العمل مع الاستعمار ثمّ أصبحوا من أعيان البلاد غداة الاستقلال .

على كل فهذه قاعدة في هذه الدنيا . المضحك في الأمر أن تهمة الخيانة التي أخرجتني يوما من بلدي وأنا مراهق هي نفسها التي تلاحقني وقد جاوزت الخمسين ، وكأن هناك لعنة مصاحبة لعائلتي تجعل العيش في الوطن مستحيلا أو بشروط ترفضها نزعة متغلغلة في النفوس لا ترى الوطن فضاء ا يشترط البقاء فيه الوفاء لصاحب العصا الغليظة وإنما الأرض التي يطيب فيها العيش لأنها توفّر الشرط الأول :الكرامة .

وبين 1961-و1964 عشت مع العائلة المهاجرة في مدينة طنجة في جوّ جديد علينا من اليسر المادي والأمان النفسي وطيلة هذه السنوات تعلمت حبّ المغرب و المغاربة .فقد استضاف البلد أبى المضطهد وفتح لعائلتي المشردة أبوابه واسعة فغرفنا من كرمه ومن حسن وفادته .وهو إلى يوم يبعثون بلدي الثاني في حين هو البلد الأول لاخوتي الذين ولدوا من أم مغربية وعاشوا فيه دون انقطاع .

وقد أصرّ والدي عند وصولنا طنجة على دخولي المدرسة الفرنسية وعارضته في هذا أشد المعارضة. فكيف يمكن لقومي عربي متشدّد أن يدخل ثانوية استعمارية ويترك مدرسة عربية . والحقيقة أنه كان بي خشية مبهمة أن يكون مستواي في الفرنسية أضعف من المطلوب فيصاب كبريائي بصدمة لا يتحملها . ورفض والدي كل حججي بتعلة ضعف مستوى التعليم في المدارس المغربية آنذاك.وحيث أن موازين القوى كانت لصالح الدكتاتورية الأبوية وان حركة التحرر في مستهلها ،فإنني دخلت الثانوية الفرنسية أقدّم رجلا وأؤخّر أخرى .

كان أول لقاء لي مع عالم جديد وحضارة جديدة . ولم يكن من السهل التأقلم مع هذا الجوّ الغريب خاصة وان اختلاط الجنسين فاجأ مراهقا خجولا ووضع أمامه لأول مرّة إشكاليات لم يتمرن عليها في الصادقية.

مما أذكره أنني كنت أترقّب يوم إرجاع أول فرض في الإنشاء الفرنسية ببالغ الخوف لثقتي المطلقة أنني سأكون الأخير إذ من أين لي أن أنافس الفرنسيين في الكتابة بلغتهم الأم .

ولما بدأت الأستاذة بإعطاء الأعداد تسارعت دقات القلب . وكان من عادة هذه الأستاذة أن تبدأ بالأصفار الرنانة وأن تتدرج ببطء متلف للأعصاب إلى الأعداد التي يفاخر بها الناس . وكدت ارقص طربا لأن صاحب الواحد على عشرين كان فرنسيا من أصفى القوم وكذلك صاحب الاثنين . إذن لقد أنقذ الشرف التونسي والعربي من وصمة عار فأنا لست الأخير ولا حتى ما قبل الأخير .وعندما وصلت الأستاذة إلى المعدّل أسقط في يدي وقد اتضحت لي الحقيقة الرهيبة : إنّ الفرض من الرداءة بمكان جعلت المرأة ترفض إصلاحه وتتأهب لدعوتي بعد نهاية الحصة لتطلب مني أن ابحث لي عن عمل يدوي لأن المجتمع بحاجة إلى العمل اليدوي الشريف . وعندما وصلت الأستاذة إلى مشارف

الأعداد الضخمة الفخمة ، كنت قد أتممت إعداد وسائل الدفاع أمام مجلس تأديب المدرسة الذي كنت أتصور قرب مثولي أمامه وأمام أب كان يفاخر بي دوما في ظهري ويبدي معي من الشدّة ما يقصم الظهر .وهو ما كان يجعلني اسميه الدكتاتور الأكبر مع العلم أنني كنت أسميه في أوقات الصفاء بصدق ممزوج بشيء من الفكاهة "أين في الناس أب مثل أبي ". وأخيرا وصلت الأستاذة إلى الفرض الأخير، تلوّح به في وجه التلاميذ كأنها تهدّدهم به : هكذا تكون الكتابة فاستمعوا جيدا . تعال يا مرزوقي لقراءة هذا النص الرائع الذي أهنئك عليه . ومن يومها لم يسخر الفرنسيون والمتفرنسون من لهجتي ومن يومها بقي "منصب " الأول في الفرنسية موقعا لا يهدده غريم إلا وعاد مكللا بالعار والشنار كما كان الأمر في الصادقية .

مرة أخرى كم لهذه المدرسة العظيمة من فضل عليّ وإنه لنفس الشعور الذي ينتابني وأنا في طريقي إلى ما يسمى بقصر العدالة –والذي كاد أن يصير لي بيتا ثانيا من كثرة التردد عليه لحضور محاكماتي ومحاكمات الآخرين – فلا أمرّ أمام هذه المدرسة التي أصبحت أقل من عادية إلا وشعرت بالغبن لما أصابها من تردي والحال أنها أم جزء كبير من نخبة لم تدافع عن ولية النعمة والأم الحنون لما أتاها الفقر والكبر .

وفي السنة الموالية قدمتني المدرسة لمسابقة le concours général وتقع بين أحسن تلامذة المعاهد الفرنسية ويفاخر بنتائجها رؤساؤها . ودخلت المسابقة لا أعلم أن نتيجتها ستغير مجرى حياتي . وتحصلت على الجائزة في مادة النقل والترجمة باللغتين وهكذا دخلت "الصوربون" لأول مرّة في حياتي وأنا في السابعة عشر ، لأتلقى من يدي وزير التعليم جبلا من الكتب و إناءا صينيا بالغ الجمال من البرسلين الفاخر كان همي الأول التخلّص منه . فماذا تراني فاعل بهذه المصيبة التي تزن خمسة كيلوغرامات على الأقل والتي كانت تتهدد بالوقوع من الحضن في كل لحظة . وفتح الله علي بالحلّ والعجوز الفرنسية التي وضعوني عندها ، تنظر بشراهة للإناء، فعقدت معها صفقة لا زلت إلى اليوم نادما عليها وهي أن أعطيها إياه مقابل أن تبعث على نفقتها بجبل الكتب إلى "الدكتاتور الأكبر" ليضعها أمام أنف من يريد ومن لا يريد. فأرتاح من الكتب ومن الإناء . وهذا ما تمّ فعلا وهكذا أمكنني أن أركض في باريس حرّا طليقا .

ويعود الفضل في هذا بالطبع للقراءة المكثفة التي كانت ولا تزال ، مع الموسيقى ، أطيب طيبات الحياة بالنسبة لي .ففي الخامسة عشر كنت قد التهمت تقريبا كل ما كان متوفرا من كتابات العقاد والمنفلوطي وتيمور وجبران وطه حسين ودوواين كبار شعراء الأمة .وبالفرنسية "التهمت" قبل دخولي الجامعة كل المتوفر من مسرحيات موليار وراسين وكورناي وشعر بودلار وبريفار وكتب الكسندر ديما و زولا و بلزاك.وكنت جد مشغوف بالأدب الروسي وكان تلستوي لزمن طويل كاتبي المفضل لا يفارقني كتابه "الحرب والسلام " وهو من بين الكتب التي أعدت قراءتها على مر العقود أكثر من عشر مرات ، لا أمل منه مثلما لا أملّ من سماع موسيقى "باخ ". لكن الكاتب الذي أثر في حياتي بصفة بالغة العمق مصيغا في جزء كبير نظرتي للإنسان والسياسة والدين والمجتمع هو دوستويفسكي العظيم . ويوم دخلت التخصص في الطب توجهت "تلقائيا " لأمراض الأعصاب وبالتحديد لمرض الصرع الذي كتبت فيه العديد من المقالات العلمية ودرّسته سنوات في كليتي تونس وسوسة . وكان هذا الاختيار وليد شغفي الشديد بشخصياته الغريبة المثيرة ومنها الأمير مويشكين الذي كان مصابا بالصرع مثلما كان مصابا به الكاتب الكبير . وأذكر أنني إبان تدريسي للمرض كنت استشهد بالوصف الدقيق للنوبات التي تحفل بها روايات دوستويفسكي فأواجه باستغراب طلبة تعلموا منذ نعومة أظافرهم اعتبار الأدب "كلام فارغ " يترك للراسبين في الحسابيات وللبنات . وما من شكّ أن اكبر مصائب التعليم في بلادنا هو هذه الأجيال التي لا تتقن أيا من اللغتين ولا تعرف للأدب قيمة دون أن تكون متمكنة من المنهجية العلمية الصارمة .

وفي السنة الموالية أي في 1964 عدت لفرنسا بعد حصولي على الباكلوريا بمنحة من الحكومة الفرنسية للدراسة في جامعة سترازبورغ حيث سجلت في كلية علم النفس ثم الطب .

وكان هذا المنعطف الثالث في حياتي ولم اكن أعلم آنذاك أن المقام سيدوم خمسة عشر سنة كاملة وأنني سأتزوج خلالها وأنجب مريم ونادية وأنني سأفكر يوما في سورة من الجبن بالبقاء نهائيا في هذا البلد.

ومما كان والدي يردّد على مسامعي طول الوقت وأنا أتأهب للرحيل ، وكأن به خشية مبهمة من إصابتي باكرا بالمرض الذي كاد يقضي عليه ، أن أمتنا بحاجة إلى كبار الأطباء وكبار العلماء وكبار المهندسين وكبار الفلاسفة والمفكرين أكثر من حاجتها إلى رجال السياسية . وإن أردت أن تثبت ولاءك للعروبة ولتونس فليكن بالتفوق العلمي .انظر إلى اليهود . إن قوتهم مرتبطة المكانة العالية مهنيا وعلميا التي نجح كل فرد وصولها .

وبالطبع رفضت الموقف . كيف يمكن لشاب يتوهج حماسا أن يبعد عن السياسة والقنابل تتساقط علىفيتنام والمقاومة

الفلسطينية في بدايتها والثورة على أبواب الانفجار في فرنسا ذاتها وبلدي يرزح تحت نير الخصم الوراثي الذي حرمني من العيش بكرامة في وطني . وهكذا دخلت منذ السنة الأولى في عمليات فوضوية منها المشاركة في إنشاء النادي الثقافي العربي الذي كانت مهمته الدفاع عن الثقافة العربية في فرنسا ، ثم تأسيس جمعية سميناها جمعية السلام والعدالة في فلسطين مهمتها تعريف الفرنسيين بالقضية الفلسطينية وجمع الأموال لدعم المقاومة . ولم يكتب لأي من هذه المبادرات نجاح لأسباب مختلفة منها تواصل ضغط "الدكتاتور الأكبر" .وثمة أحيانا أحداث صغيرة يتضح فيما بعد أن لها تأثيرا بالغ الخطورة والعمق إذ توجه دفّة الحياة في اتجاه آخر.تمثل هذا الحدث البسيط في لقاء ساخن في مقهى المطعم الجامعي بسترازبورغ حول كبرى القضايا العربية وكنا آنذاك جيلا كاملا من الشباب العربي المصدوم بهزيمة 1967. طال النقاش وتشعب ولكل حلّه السحري وخونته .ثمّ جاء وقت الدرس فاعتذرت وغادرت الجماعة راكضا للمدرج الذي لم يكن من السهل الحصول فيه على مقعد . وبعد انتهاء حصة الظهر أي حوالي السابعة مساء ، عدت للمطعم الجامعي لأكتشف ذاهلا أن الأصدقاء لم يغادروا المقهى لحظة وان النقاش تواصل على أشدّه منذ مغادرتي وأن أي منهم لم يعتبر من واجبه حضور دروسه لاهتمامه بما هو أجدر بالاهتمام وكان للبعض منهم باع طويل في الرسوب وتكرار السنوات . وهنا عادت للذاكرة نصائح الرجل المحنّك مكتسبة عمقا جديدا . نعم كيف سنكسب المعركة السياسية إن لم نكسب الحرب الحقيقية التي هزمنا فيها :الحضارية بما هي معركة العلم والعمل . ومنذ تلك اللحظة أخذت القرار بأن أضع مؤقتا كل حماسي بين قوسين لأركّز على الدراسة لا لاكتساب الجاه والمال وإنما قربانا لأمة عظمى تتمرغ في الوحل –أو بالأحرى يمرغها قادتها في الوحل -ولكنها كانت وستبقى أمة عظمى ولو تتمرّغ في الوحل .

كانت الستينيات والسبعينيات سنوات الكدّ والجدّ رغم أنني كنت أغرف بكل نهم من كل الفرص للمطالعة وحضور المحاضرات والحفلات الموسيقية والعروض المسرحية معتبرا أن من بين الغنيمة التي يجب ان أعود بها للوطن تحصيل كل الممكن من الزاد الثقافي في كل الميادين الممكنة .

وفي الثانية والعشرين اكتشفت بالصدفة في المكتبة معلقة تعلم بانطلاق مسابقة عالمية للشبان بمناسبة مأوية المهاتما غاندي في شكل نص عن حياته وفكره .فعاد شيطان الكتابة المدفون في الأعماق إلى السطح . وكان "غاندي " بالنسبة لي ، شخصا مثيرا ومحيرا ، وأنا بين إغراء الثورة وقيم الطب بتقديسه للحياة ووجوده بطبيعته على طرف نقيض مع العنف.كتبت النص مركزا على فكرة لم أتخل عنها إلى ليوم أن "المهاتما" كان المثال والدليل على أن القوّة ليست العنف وأن العنف ليس في آخر المطاف سوى ضعف بكثير من الضجّة .

ثم نسيت الموضوع لأن حظوظي في النجاح في مسابقة يشارك فيها شباب العالم وبكل اللغات شبه معدومة . ويا لها من مفاجأة بعد سنة عندما أعلمتني سفارة الهند بفوز نصّي وبأنني سأكون ضيفا على الحكومة الهندية لمدة شهر . وكان سفري للهند وتجوالي فيها من أقصى الشمال إلى أقصى الجنوب ، بمثابة حلم من أحلام ألف ليلة وليلة .فبين عشية وضحاها يجد طالب فقير نفسه ، في قصور المهاراجات وتحت ذمته سيارة بسائق تأخذه من مطار إلى مطار ويستقبله رؤساء الجامعات وكبار الشخصيات ، هو الذي كان يعيش في غرفة خادمة في الطابق السادس ، كنت اسميها الثلاجة لأنها بلا تدفئة ...وفي برد أوروبا . وكان ارتطامي مجددا بالثلاجة بمثابة الإفاقة من حلم جميل.

أمام التاج محل في الهند سنة 1970

وفي سنة 1973 تحصلت على الدكتوراه في الطب في الوقت الذي نجحت فيه مناظرة الدخول إلى إقامة المستشفيات الجامعية .وللأسف الشديد فإنه لا يسعني القول أنني كنت الأول لجمال السيرة الذاتية حيث كنت الأخير بل وللمناظرة الثانية (ومما يشفع لي أننا كنا 800 طبيب نتزاحم على 25 منصبا وأن فارق الأعداد بين الأول والأخير كان نقطة ونصف)

ولا غرابة في هذا الصراع المرير لأن إقامة المستشفيات الجامعية هي الطريق الملكي الذي يتخرج منه كبار الأساتذة في الطب وكبار الباحثين في حين يبقى التخصص العادي طريقا ثانويا لا يؤدي إلا للعيادة الخاصة أو للمستشفيات الصغيرة.

ومع هذا فقد دخلت الإقامة جد غاضبا على هذه الوصمة في تاريخي الناصع الذي لم يعرف دوما إلا المرتبة الأولى ورفض والدي مدة طويلة تصديق الرتبة وبقي يتساءل عن عدد اليهود والصهاينة منهم في لجنة التحليف . المهم في الأمر، بالرتبة الأخيرة أو الأولى ، أنها فتحت أمامي أبواب احسن تدريب ممكن وكل فرص التعمق والتألق .وبعد خمس سنوات أكملت اختصاص طب الأعصاب و الطب الباطني و الطب الوقائي وتحصلت على ميدالية فضية للمقيمين الباحثين في دراسة ميدانية عن أسباب الشلل النصفي عند الشبان، إضافة إلى إجازة علم النفس التي تحصلت عليها من كلية العلوم الإنسانية . ثمّ انتدبت كأستاذ مساعد في كلية سترازبورغ وكنت الذراع الأيمن لعميدها البروفيسور دورنر الذي كان يعهد لي بمرضاه الخاصين .

وبقي "أين في الناس " أشهرا طويلة يجوب مقاهي ونوادي ومحاكم وبيوت مراكش يقول لمن لم يسمع ومن سمع القصة الف مرة : هؤلاء الفرنسيين الاستعماريين ..تصوروا أن ابني أنا يدرسهم الطب بلغتهم وفي جامعتهم . وكنت أعابثه قائلا أن هؤلاء الفرنسيين الاستعماريين هم الذي علموني الطب وليس رعاة الإبل من أهله ، فيرغي ويزبد ثم ينفجر ضاحكا . وفي سنة 1975 سافرت للصين الشعبية ضمن وفد لأدرس تجربة الطب في خدمة الشعب التي كنت جد معجب بها وقد حاولت أن أطبق بعض ما شاهدت لكن دون جدوى

مع طلبة مسلمين من اليوغور في جامعة بيكين سنة 1975

وهكذا بدا لي أنني أتممت العهد الذي قطعته على نفسي لأكثر من عشر سنوات خلت وأنا أدير ظهري لمحرري فلسطين من مقاهي سترازبورغ .

في لجنة مناقشة أطروحة دكتوراه عن أمراض التغذية عند الطفل التونسي في كلية سترازبورغ سنة 1989 في نفس القاعة التي ناقشت فيها أطروحتي سنة 1973

كانت فترة اسميها إلى اليوم سنوات الأشغال الشاقة إذ كان العمل لا ينتهي إلا ليبدأ من جديد في دوامة مجنونة .كان البرنامج العادي في قسم جراحة الأعصاب مثلا أن أكون جاهزا في غرفة العمليات في السابعة صباحا لأخدم "العرف" وهو يفتح الجمجمة ويستأصل ورما. وأحيانا كانت العملية لا تنتهي قبل الساعة الخامسة ومن غرفة العملية كنت أتحول مباشرة للقسم لتلقي المرضى الجدد و إعداد ملفاتهم لا أخرج من المستشفى قبل العاشرة ليلا . وأيام الحراسة كنت أنتقل مباشرة من القسم إلى غرفة الحراسة للعمل طول الليل ثم الوقوف من الغد في السابعة صباحا جاهزا ليوم جديد من العمل .

ومع هذا كانت أيضا أخصب السنوات لما يتعلمه المرء وما ينوء به من مسؤولية وما يشعر به من متعة وهو في غمرة الكدّ والجدّ .وإبان هذه الفترة حصل تغيير جذري في علاقتي -أو قل في فهمي للغرب- فقد وصلته بعقد كل العرب من مطالبة واحتجاج وشعور بالنقص والاضطهاد، واعتبرت نفسيا مغزوا غازيا جاء ليسرق مثل بروميتي سر النار من الآلهة ويعود به لأهله لأخذ الثأر .ولم تلبث هذه الأفكار الصبيانية أن تبخرت وأنا أكتشف أنه ليس هناك غرب واحد وإنما أربعة على الأقل .فثمّة الغرب الاستعماري العنصري الامبريالي الذي نكرهه ونحاربه وثمة الغرب الذي يكره ويحارب الغرب الاستعماري العنصري الامبريالي الذي نكرهه ونحاربه ، وثمة الغرب الحضاري ، وهو شئنا أم ابينا، راس الحربة في مغامرة الإنسانية العلمية والفكرية . وهو لم يفتك المرتبة الأولى إلا لأنه الأكثر تحرّرا واحتراما للإنسان وللعلم .وثمة غرب الإنسان العادي الذي عرفته بحكم مهنتي كطبيب ففي فترات الصيف والعطل ولزيادة دخلي المتواضع كمقيم شاب في المستشفيات ، كنت أضطر إلى تعويض الأطباء الخواص عندما يأخذون عطلهم . وهكذا استطعت طيلة خمس سنوات ، دخول بيوت الناس العاديين في القرى وضواحي المدن لاكتشف بشرا يتألمون مثلنا ويعانون من المآسي والصعوبات وليست حياتهم خلافا لما نتوهم بأيسر مما نعرف .

وهكذا تضافرت المعرفة الإنسانية من الداخل والنهل بإعجاب وامتنان من الثراء الثقافي الفاحش للغرب لتمسح كل الأفكار الصبيانية التي وصلت بها شابا ، دون أن يعني هذا أنني انجرفت في تيار عبادة الغرب مثلما ما رأيت حولي دوما . وربما كان السبب في هذا متانة وعمق الانتماء الذي رباني عليه أهلي والمدرسة الصادقية فطيلة هذه السنوات لم أتخلّ يوما عن القراءة بالعربية ومتابعة أخبار الأمة والوطن وحتى الكتابة بالعربية حالما بتدبيج كتب طبية بلغة الضادّ .وربما كانت معرفتي الدقيقة بأمراض هذه الحضارة من استشراء إدمان الكحول و تشتّت العائلة ومادية مفرطة ، هي التي كانت وراء موقف متوازن

كانت النظرة التي كونتها للغرب لا تخلو من إعجاب ومن نقد ، و كانت معقدة بحجم تعقيد الغرب نفسه وكم استغرب إلى اليوم النظرة السطحية والأحكام القطعية والصور الكاريكاتورية التي تسكن العقل العربي بخصوص الخصم - الشريك الحضاري .

وسنة 1979 أخذت قراري النهائي بالعودة للوطن رغم إلحاح زوجتي وعائلتها بالبقاء في بلد يوفر كل ما يمكن أن يطمح له المرء . ولم يكن الخيار سهلا لأنني كنت أعلم ما الذي ينتظرني في تونس . لكني عشت طوال هذه السنوات بقناعة أنني لا أتعلم لحسابي الخاص .فثمة آمال الوالد العريضة وثمّة حليّ الوالدة التي بيعت لكي لا يتوقف بي الركب .وثمة ذكرى موجعة لأخت في الثانية والعشرين من العمر لفظت آخر أنفاسها على متن شاحنة نقل ريفية بين دوز وقابس لأنه ليس في دوز مستشفى لائق يحفظ حياة امرأة جاءها نزيف حاد إبان ولادة صعبة . هكذا حزمت حقائبي لبلاد جارت عليّ وهي دوما عزيزة ، وقوم ضنوا عليّ وهم دوما كرام .

وبين 1979 و1981 عملت كأستاذ مساعد في قسم الأعصاب بتونس لأفهم آنذاك فقط و بعمق سر تفوّق الغربيين علينا. فالقيم السائدة في المستشفيات التي غادرتها هي الجدية والإتقان والتفاني وحب العمل واكرم الناس فيها أكثرهم عطاءا . وهي كل القيم التي افتقدتها حال ارتطامي بالمستشفيات التونسية فكانت الصدمة الكبرى التي أرجعتني شيئا فشيئا إلى ما جاهد والدي لنهيي عنه وما حاولت جاهدا تفاديه : السياسة .

لقد بدا لي واضحا أن رداءة العمل ، غير مرتبطة بخلل وراثي وإلا لما نجحت في عملي في سترازبورغ مثل كثيرين من العرب الذين ابلوا البلاء الحسن في بلدان الهجرة ، وإنما يتعلق المرض بالمعطى الثقافي الناتج بدوره عن تنظيم سياسي متخلف، يضع الشخص غير المناسب في المكان غير المناسب ويكافئ الموالي وليس الكفء ويحارب العقل المجدّد فيجدب الخصب ويشل الطاقات ويكبل الفكر ويشيع الإحباط والغضب ثمّ اللامبالاة والتسيّب .

والغريب في الأمر أنني لم افهم قيمة الديمقراطية ولم "أعتنقها " إلا عند رجوعي إلى تونس.

ففي فرنسا كانت الصبغة العروبية الاشتراكية هي الغالبة على تفكيري ولم أكن أرى في النظام السياسي الذي كنت أعيش في كنفه سوى الفضائح والاشهار الرخيص والصراعات السياسوية الخ ..

وفي الليلة الظلماء يفتقد البدر . كانت الليلة الظلماء ، فقدي لبدر الحرية واكتشافي لما نسيت وتناسيت من موبقات وغباء نظام الشخصانية والحزب الواحد والإعلام السفيه والانتخابات المزيفة وقمع المخالف في الرأي واستشراء المحسوبية والانتهازية والرداءة في كل مواقع القرار، لأن القاعدة في هذا النظام الولاء قبل الكفاءة . وفي قسم الأعصاب عهد إلي رئيس القسم بالعيادات الخارجية وهناك اكتشفت عمق الفقر والجهل لشرائح واسعة من شعبنا خاصة تلك التي كانت تأتي من القصرين وتالة وجندوبة ومدنين وأحيانا تبيت أمام المستشفى ليتلقاها طبيب عابس متجهم يحكم في دقائق معدودات على حالة ميئوس منها .

لا شك أنني رأيت أمي الفقيرة في كل نساء الشعب ورأيت أختي التي ماتت على شاحنة نقل ريفية في كل المرضى وفي كل طفل معاق ابنة أخت أخرى تقول الشعر وتهديني لواعجها عبر قصائد بسيطة تدمع لها العينان ويدمى لها القلب . وهكذا استعصت العلاقة "الطبيعية " بين الطبيب والمريض من تباعد ومهنية باردة إذ أصبحت كل حالة مسالة شخصية فانقلبت حياتي جحيما لا يطاق إذ من أين لي حلّ مشاكل بمثل هذا العدد وهذا التعقيد وهذه الخطورة .

وفي هذا الظرف بالضبط وصلت تقاطع طريق مصيري رابع كان اختيار اتجاه فيه هو الذي أدى إلى بقية التطورات . كان شغلي الشاغل آنذاك كثرة الأطفال المعاقين في العيادة وهو الأمر الذي لم أره في المستشفيات الفرنسية وفاتحت رئيس القسم بضرورة التعامل مع موضوع لم يكن يشغل بال أحد في طاقم الأطباء .فهز الرجل كتفيه وقال لي ليس لنا ما نفعله وكان لا يهتم إلا بمرض وهن العضلات الذي كان يسعى لأن يسمى باسمه .فشعرت باستياء بالغ لأن إيماني كان ولا يزال أن على الطب أن يكون في خدمة الناس لا في خدمة الطبيب وقررت أن أشبع الموضوع بحثا وتمحيصا

لعلني أستطيع فعل شيء ما .

يتصادف أن المستشفى أدخل لأول مرة جهاز "السكانار" وكنت تمرنت عليه في تشخيص أمراض الدماغ بل ونشرت سنة 1978مقالين في أول كتاب جماعي بالفرنسية عن استخدامه.وهكذا أمكنني أن أفحص به العشرات من الأطفال وأن أعيد الفحص السريري المدقّق للمئات ، وأن أحدد جلّ الأسباب والظروف التي حدثت فيها الإعاقة . ولما نشرت البحث في 1981 بعد سنتين من العمل المضني ، تحصلت على جائزة المؤتمر الطبي المغاربي التي كان يطلق عليها اسم جائزة بورقيبة في الطب. وكانت أول مرة أرى فيها عن قرب الرجل الذي شرد عائلتي وهو يوشح صدري بوشاح الجمهورية . ويومها ملأ الدكتاتور الأكبر مقاهي مراكش ضجيجا عن " ثأر " الحياة له بعد عقدين من النفي وكيف أن المجاهد الأكبر "اضطرّ اضطرارا " وبالرغم من انفه لتوسيم ابنه الذي الخ . واعتقد أن تغيير نظرته لبورقيبة –أو بالأحرى تليينها- بدأت من تلك الفترة خاصة وأنني أكدت له أن الرجل استقبلني بلطف وأنه داعبني بخصوص المرازيق أهل الشعر والأدب الذي اصبح لهم اليوم أيضا نصيب حتّى في الطب .

إلا أن المهم يومها لم يكن هذا التشريف بقدر ما كان ما يضعه على عاتقي من مسؤولية فنتيجة البحث كانت بالغة البساطة وهو أن لنا في تونس آلة جهنمية تقذف كل سنة قرابة الأربعة آلاف طفل معاق لأسباب رئيسية هي انعدام التلقيح ضد الحصبة وظروف الولادة وزواج الأقارب . فكاتبت وزير الصحة لأطلب منه وضع ثلاث برامج للتلقيح الشامل ضد الحصبة ومراقبة الولادات وحملة تثقيفية بخصوص زواج الأقارب . ويتصادف أن الوزير كان يومها السيد رشيد صفر الذي استدعاني للوزارة وقال لي بالحرف الواحد : تفضل أنت المكلف بالأمر والوزارة تحت ذمتك . وكان هذا الموقف غير عادي في مثل هذه الأنظمة، ومن ثمة امتناني للرجل و احترامي له إلى اليوم رغم أنه كان من رجالات عهد أضرّ بتونس أيما ضرر . وهكذا انطلق العمل لتكوين لجان تواصلت فيما بعد ولا أفخر بشيء اليوم قدر فخري بان نسبة التلقيح ضد الحصبة التي كانت عند بداية البحث 20 في المئة ارتفعت بسرعة إلى 80 في المئة وان مراقبة الحمل أصبحت سريعا برنامجا وطنيا وأن زواج الأقارب أصبح لفترة موضوع الساعة .

ومن طبيعة تفكيري أنني إذا تناولت موضوعا فمن كل جوانبه وقضية الإعاقة لم تكن تتطلب فقط سياسة وقائية بعيدة المدى والنتائج وإنما العمل العاجل لإعانة أطفال وعائلات في قلب المأساة .

هكذا انخرطت في جمعية الدفاع عن المعاقين الحركيين ثم ترأست فرعها في سوسة . وفي سنة 1984 عدت لزيارة بورقيبة في إطار وفد لمطالبته بقانون يحمي المعاقين لأشتغل فترة طويلة في لجان الشؤون الاجتماعية المكلفة بإعداد هذا القانون .

وإبان ذلك اللقاء الثاني لاحظت التردّي الهائل للجسم والعقل عند رجل كان مصيرنا جميعا بين يديه وخرجت من اللقاء بالغ الغمّ والقلق . وكنت بعيدا كل البعد عن تصور ما سيكلفنا الرجل بخياراته المشئومة أو نهايته المحزنة. كما كنت بعيدا كل البعد عن تصور لقائي الأخير معه في يوم من أيام ربيع 2000 وهو مسجى في العلم على أرض بيته المتواضع في المنستير .ويومها استقبلني البورقيبيون بحفاوة كبيرة سببها شدة كرههم لبن علي ووزرائه الحاضرين ، ومن ثمة تعاطفهم مع إنسان يحاربه بلا هوادة . وعلى جثمان رجل حقدت عليه طفلا لأنه كان عدو الأب، وشابا لأنه كان عدو العروبة ، وكهلا لأنه كان عدو الديمقراطية ، قرأت الفاتحة بتأثر لأن من القيم التي ربتني عليها والدتي انه بحضور الموت تنتهي الضغائن والأحقاد

وفي نفس السنة أسّست ، مع عدد من المثقفين الأفارقة التي جمعتني بهم مؤتمرات تعنى بمشاكل الطفل، الشبكة الافريقية لحقوق الطفل ومركزها إلى اليوم نايروبي وفيها ممثلين عن عشرين بلدا أفريقيا أغلبهم من البلدان الناطقة بالانجليزية مثل كينيا وزامبيا وجنوب افريقيا. وكانت فرصة ذهبية لأتعرف عن كثب عن مشاكل الطفولة في افريقيا وسنة 1988 كان لي شرف المشاركة في أديس أبابا في القراءة الأفريقية للمعاهدة العالمية لحقوق الطفل التي كانت بصدد الإعداد والتي ستصدر سنة 1990 .

وكنت لا أعلم وأنا في بداية انخراطي في العمل ليلا نهارا على معالجة مشاكل الطفل وخاصة المعاق ، أنني تحت المراقبة لعميدة كلية طب سوسة التي كانت تبحث عن مسئول تونسي لتجربة الطب الجماعي في كليتها وهي تجربة بدأها الكنديون سنة 1977 وتواصلت تحت إشرافهم إذ لم يرض أي تونسي بالانخراط فيها .

فالطب الجماعي يعني العمل في الأرياف وفي المستوصفات والتركيز على الوقاية وكلها أمور ليس لها "هيبة " في نظر من لا يرون الطب إلا عملا في المستشفى و تكنولوجيا و.....مال .

لم أتردد لحظة واحدة ولم تثنني دهشة واستغراب من حولي : أنت بشهاداتك ومستواك وجائزة بورقيبة ترضى الخ . وربما لعب دور الاسم الذي تحمله الكلية دورا خفيا فابن الجزّار الذي عرف بأنه طبيب الفقراء من الأطباء القلائل في تاريخنا الذين كنت أعجب بهم .وكنت أشعر بنوع من الفخر أن أضع قدمي في خطاه وأن أواصل على الطريق الذي فتحه هو وأجداد نتشدق بأمجادهم ولا نتابعهم بالترجمة والتعريب والبحث وخدمة الناس والأمة والحضارة كما كانوا يفعلون .

غادرت مركز الأعصاب غير مأسوف عليه لأشرف على تجربة الطب الجماعي بكلية سوسة في ميدان التكوين والبحث وإعمال البرامج الوقائية في الضواحي الفقيرة وخاصة في مدينة القلعة الكبرى.

كانت القلعة "المختبر " التي جربت فيها مفهوم سياسة الخدمات الطبية المندمجة أي تلك التي توفر الوقاية والعلاج لرفضي التفريق بين الأمرين . ولا يوجد في تونس (وربما حتى في العالم)مدينة أشبعت بحثا من الناحية الصحية مثل القلعة الكبرى فقد كتبت فيها على امتداد 15 سنة عشرات رسائل الدكتوراه لتلامذتي

وكم أثلج صدري أن يتحصل العمل سنة 1989 على جائزة المؤتمر الطبي العربي التي سلمني إياها الرئيس الجزائري السابق

تسلّم جائزة المؤتمر الطبي العربي سنة 1989 من يدي الرئيس الجزائري الشاذلي بن جديد

وفي نفس السنة تلقيت في باريز جائزة المعهد الفرنسي للصحة التي تمنح لكبار الأطباء الأجانب . وبصفة موازية للبحث والتدريس كان همي الأول إشاعة التثقيف الصحي داخل المجتمع فنشرت قرابة العشرين كتيبا بلغة بسيطة للعموم وألفت دليلا للمربين الصحيين وعددا كبيرا من الأبحاث لي ولمساعديّ أو نشرت في المجلات الطبية التونسية والعالمية . وفيها تكونت أول لجان المواطنين للصحة وأولى اللجان المدرسية للوقاية ونفذت أولى البرامج لمحاربة الأمراض الجديدة مثل ارتفاع الضغط والسكري واولى عمليات تقصي سرطان الرحم . وقد نتج لي عن هذه التجربة ، زاد هائل من المعلومات جمعتها في كتاب بثمانمائة صفحة وعنوانه "المدخل إلى الطب المندمج" أصررت على كتابته بالعربية لتنفيذ العهد القديم بان أكون وفيا للغة الضاد.

وكان من بين برنامج العمل الذي استطعت أن اقنع به تلامذتي تكوين مكتبة طبية بلغة الضاد (سميناها المكتبة الرازية في الطب) ووزعت العمل على أن ننتهي منه في ظرف عشر سنوات .ولو لم تدمر الدكتاتورية التجربة لكان للمكتبة الطبية العربية والتونسية اليوم ، موسوعة كاملة في ميدان الطب الجماعي.

ذلك لأن الدكتاتورية نسفت من أسسه مشروعا جاهدت لإبقائه خارج السياسة لتفريقي بين المهني والسياسي لكن الدكتاتورية لا تفرق بين السياسي والمهني والشخصي فسدّدت ضرباتها لي في كل المستويات.

والحق أنني قبلت دوما تعرضي للاضطهاد ، أما ضرب مؤسسة تعليمية وبحثية لمجرد أنني كنت المسؤول عنها فإن الأمر كان ولا يزال يثير في شعورا عميقا باستهجان للمسؤولين وعلى راسهم وزير الصحة للدكتاتورية واسمه

هادي مهني الذي شاءت سخرية الأقدار أن يكون زميلا سابقا ومن نفس الاختصاص.

وفي سنة 1992 حلّت السلطة القسم وطردتني من القلعة، وفي سنة 1993 اختفت الألف نسخة من المدخل إلى الطب وفي سنة 1995 منعت من كل بحث علمي وفضل وزير الصحة أن تضيع مئات الآلاف من الدنانير على تونس (التي تحصلت عليها بمجهوداتي الخاصة من المفوضية الأوروبية) على أن تمول أبحاث القسم حول انتشار مرض ارتفاع الضغط وعواقبه . وسنة 1996 رفضت لي الوزارة فتح برنامج اختصاص ثم حاربت الأطباء الذين غامروا في التسجيل فيه ومع هذا فقد استطعت فتح التخصص وتدريب قرابة الستين طبيبا الذين توزعوا في ارياف الوطن يحاولون تطبيق تقنيات ومنظومة فكرية يلعب فيها الالتزام الأخلاقي دور المحرك .وامام نجاح البرنامج وتكثف دوري في النظال الحقوقي لم تجد السلطة حلا غير طردي من الكلية نهائيا في صائفة 2000 .

ومن نافل القول أن هذه الحرب الشرسة في المستوى المهني التي اشهرها ضدّي النظام كانت جزءا من حرب أوسع تمثلت في ضربي على كل المستويات الممكنة وذلك نتيجة انخراطي في العمل السياسي الذي حذرني من عواقبه الوخيمة عبثا الدكتاتور الأكبر –ومن هنا فصاعدا سنسميه الحاج محمد-لأنه قبل أخيرا مبدأ "نضج " العائلة لإصلاحات ديمقراطية لا مفر منها عبر تمشي ثابت ومدروس وبأقلّ سرعة ممكنة .

وربما لاحظ القارئ ما أتكلف من جهد لإقناعه بأنني كنت دوما رجل علم وفكر تحاشى العمل السياسي ما استطاع لإعداده لتقبل فكرة انه وقع جرّي إليها جرا ليزداد إعجابه بتجردي من كل طموح"مشبوه " والحق أن هذا ما حاولت إقناع نفسي به ، ناهيك عن الحاج محمد.

وحتى لا أستخفّ بذكاء القارئ أقول أنني كنت كالنمر بالمرصاد انتظر اللحظة السانحة للوثوب داخل الساحة السياسية ومن أين لي غير ذاك وقد ولدت في وسط تتحكم في مصيره السياسة وتربيت في حجرها –الحديدي- ولاحقتني بمشاكلها طفلا ومراهقا وشابا ، وهي اليوم حجر عثرة في كل ما أريد تحقيقه من العيش بكرامة وممارسة مهنتي بفعالية .وحتى لا أحرم نفسي من محاكمة عادلة أقول أنني كنت مخلصا في محاولة الابتعاد عنها .

لا شيء أكثر انتشارا عند الآدمي من التناقض فنحن نريد الشيء ونقيضه .وكانت هناك جملة من الأسباب تدعوني للتمسك بالميدان العلمي منها نجاحي الواضح فيه وكل ما كنت أجنيه معنويا من نضال ممتع شريف وبدون خطر. إلاّ أنه كانت بداخلي قوى نفسانية هائلة تدعوني للنزول إلى الساحة السياسية منها إرادة الثأر لوالدي ، لصالح بن يوسف الذي أمر بورقيبة باغتياله ، لقيم يسخر منها النظام البورقيبي ثم جاء بن علي ليزيّفها ، ومنها أحلام واسعة عريضة للشعب والأمة ومنها تمرّد على ما كنت ما أرى من حولي من فوضى وظلم ورداءة ومنها طموح شخصي للشهرة والزعامة والريادة .

ولا أغرب من ضرورة الدفاع عن النفس عندما يتعلق الأمر بممارسة النشاط السياسي لأنك متهم بالطموح الشخصي ويصل الأمر إلى درجة منقطعة النظير من الغباء والنفاق عندما يتهمّك بالأمر الماسك بالسلطة والمتشبث بها بأظافره وأسنانه أو ذلك الذي يسيل لعابه طمعا فيها وهو يفتعل البراءة من هذه الخطيئة الكبرى . وخلاصة تجربتي اليوم بعد أن شبعت من هذا الخطاب الغبي أن الشكّ شرعي وواجب اعتبارا للسوابق الخطيرة لكن السياسة كالزواج عمل شريف محركها مثله دافع شخصي هو الشهوة وضرورة أهمّ تحرك هذه الشهوة بل تستغلها لبناء العائلة والمجتمع وتواصل الحياة وتجدّدها .

الإشكالية في الفعل السياسي الشريف أن توضع قوة الطموح الشخصي في خدمة المصلحة العامّة وإلا كانت كالشهوة الجنسية التي تستغلّ للاغتصاب لا للإنجاب .

ولا بدّ أن تصمّ أذنيك عن ادعاء هذا أنه يخدم الصالح العام والآخر هو الذي يريد اغتصاب الشعب فأنت لا تعرف من يضع طموحه الخاص في خدمة الطموح العام من ذلك الذي يركب الطموح العام لتحقيق طموحه الخاص إلا إبان حضور ساعة الخطر أو ساعة تقاسم الغنائم .

كم رأيت إبان هذه العشرية من ناس باعوا الديمقراطية وحقوق الإنسان بمنصب وزير ونائب في البرلمان وسفير وحتى معتمد في خدمة نظام دكتاتوري فاسد ، وكم وضعوا هذه القيم في الثلاجة عندما تهددت الأخطار أمنهم الشخصي . وبالمقابل ثمة من أثبتوا بصفة لا تقبل الجدل برفضهم الخوف والطمع ، أن لالتزامهم معنى وقيمة ، وأنهم يخدمون الوطن في الأول وأشخاصهم في المرتبة البعيدة وراء ذلك .

المهمّ أنني كنت في حالة تردد أمام دخول العمل السياسي تتساوى داخلي قوى من نفس القوة وفي اتجاه معاكس . ويكون الحكم في مثل هذه الظروف ، للقدر الذي يضع على كفة الميزان الريشة التي ترجّح الكفّة .

وفي نهاية 1979 رمي النرد وانعطف المسار للمرة الخامسة عندما جاءتني الممرضة لتقول لي هناك شخص يلح على طلبك ويقول أنه من جريدة الرأي . وآنذاك تذكرت أنني كتبت مقالة طويلة عنوانها "لماذا نحن متخلفون "ضمّنتها كل غضبي من مظاهر التخلف التي كنت أتخبط فيها داخل وخارج المستشفى .

وكان على الخط رجل من ألطف ما عاشرت ، ونسي الناس فضله هو احمد الكرفاعي ، وكان آنذاك رئيس تحرير الجريدة الديمقراطية الوحيدة في تونس . طلب مني الكرفاعي أن أزوره في مكتب الجريدة وهو ما تمّ سريعا . قال لي الرجل مداعبا : لم أكن اعلم أن بإمكان الأطباء الكتابة بمثل هذا الخ ..

وقلت له على نفس الموجة، أن أطفال الأغنياء يولدون وفي فمهم ملعقة من ذهب ، أما أطفال المرازيق فيولدون وفي فمهم عجز أو صدر بيت شعر .وهم لا يزعقون إلا على وزن من أوزان الخليل .

قال لي الكرفاعي : من اليوم اعتبر "الرأي " جريدتك فوعدته بأن أحاول الكتابة كلما وجدت متسعا من الوقت. وصدرت المقالة لتثير جدلا تواصل أشهرا وكل يدلي بدلوه في خصوص الرد على السؤال وكانت تجربة ممتعة أن أرى جدلا فكريا راقيا في بلادي اثلج صدري وشجعني على مواصلة الكتابة .

شيئا فشيئا وجدت نفسي ابتداء من 1980عضوا في مجموعة من الديمقراطيين الليبراليين التي تدير جريدة الرأي. وكان على رأسها حسيب بن عمار الذي فتح لي باب الجريدة ولم" يصنصر" أي من مقالاتي على شدّة لهجة لم تكن معهودة لا في الجريدة ولا في بلاد تتلمس خطاها بعناء واضح نحو ديمقراطية جنينية .

والحق أنني كنت سعيدا بعائلتي هذه رغم علمي أنها تتكون في أغلبها من أعضاء قدامى في الحزب المكروه وأن مواقف الجماعة من العروبة والاشتراكية كانت جد غامضة .ولم يكن يجمعني معهم إلا الخيار الديمقراطي . وعلى كل ، فقد كانت هذه العائلة التي تبنّتني الخيار الوحيد الممكن طيلة الثمانيات .فكل ما كان موجودا على الساحة ، أي التيار القومي والتيار اليساري والتيار الإسلامي ، كان رافضا لي أو كنت رافضا له

فقد لفظني القوميون وكانوا أول من غسلت منهم يدي. ففي سنة 1984 جاءني البعض منهم بعد صدور أول كتاب لي في تونس "لماذا ستطأ الأقدام العربية ارض المريخ " يطلبون مني بناء حزب قومي. فقلت لم لا؟ وها هي منطلقات الحزب كما أتصورها : العروبة حضارة وقيم والدولة المنشودة فدرالية على الطريقة الأوروبية وليست الدولة المركزية ، والديمقراطية في كل قطر هي المدخل الإجباري لها ، وحقوق الإنسان الركيزة ، وللأقليات الحقّ في المساواة المطلقة وتنمية ثقافتها و الانفصال السياسي إذا شاءت .

وليس من السهل أن تكون متقدما بأفكارك عشرين سنة إذ لم اسمع من يومها بالجماعة .

وفي نفس السنة انعقد المؤتمر الثاني للرابطة ويومها قامت حملة عنصرية بغيضة ضدّ أحد المرشحين للهيئة المديرة لأنه يهودي (هو سارج عدّة الذي أصبح فيما بعد واحدا من أبرز رجالات الدكتاتورية) وشعرت بأن عليّ أن أوقف هؤلاء الناس الذين كنت أحسب عليهم ويحسبون عليّ .فصعدت للمنصة وقلت أن فخري بالانتماء للعروبة ناجم بالأساس على أنها الأمة التي قدّمت لأبنائها كمثال على الشجاعة اسودا هو عنترة، وكمثال للكرم مسيحيا هو حاتم الطائي ، وأنها جعلت من يهودي اسمه السموءل رمزها للوفاء .

وصفّق الحاضرون طويلا للجملة العفوية وطالبوني بإعادتها وارتفعت أسهمي في المؤتمر في حين سقطت قيمتها في الحضيض عند القوميين وقد إتضح لهم أنني قومي تحريفي وربما حتى قومي صهيوني .

وسنة 1987 رفضت الانخراط في حزب قومجي أسسته السلطة لمراقبة القوميين وكان يضم خليطا من المخدوعين والانتهازيين وأناس ارتبطوا بأنظمة مشرقية عبر قنوات مخابراتية.

وسنة 1990 كان الطلاق بالثلاث. فقد رفضت ضم الكويت بالقوة لوعي أن الأمر سيكون كارثة على الأمة ولمعارضتي الشديدة لكل الأنظمة الدكتاتورية التي أجملها الجزء الأكبر من مسؤولية وضعيتها المزرية . لا شكّ ان دكتاتورية صدام حسين هي أشرس دكتاتتورية عربية وهي أكبر كارثة أصيب بها الشعب العراقي العظيم منذ إحراق المغول

لبغداد .

ولاشكّ أن وصمة حلبجة لعبت دورا كبيرا في بغضي الشخصي للدكتاتور الدموي فهي وصمة عار في جبين كل عربي لأنّ متنا لم تعرف يوما التصفية الجماعية وبمثل الأسلحة الهمجية التي استعملت في حلبجة أي الكيماوية ضدّ مدنيين عزّل لشعب أبيّ له كل الحقوق التي نريدها لأنفسنا ، ناهيك على أنه أعطانا صلاح الدين ولا بد أن يأتي يوم يذهب فيه وفد عربي لحلبجة ليضع باقة الزهور على نصب للضحايا وان يقدم اعتذارات وتعازي الأمّة لإخوتنا الأكراد.

كنت أخشى خاصة، أن يؤدي هذا العمل الأخرق إلى تصدع نهائي لما بقي من شبه نظام عربي وتدمير العراق نفسه وهو ما حصل بالضبط. وفي خضم الهستيريا الموالية لصدام نشرت مقالة في مجلة "حقائق" بعد كارثة الحرب أدين فيها الدكتاتور العراقي .فقامت الدنيا ولم تقعد .وتخصصت في شتمي جريدة اسمها "الشروق" وكادت الرابطة التي كنت آنذاك على رأسها أن تنفجر. وبصق مجهول عليّ في الشارع .وكتب شخص أصبح فيما بعد عميدا للمحامين في جريدة ما "أنه لن تقوم للعرب قائمة ما دام فيهم شخص اسمه منصف المرزوقي" ولما جاءني أحد الأصدقاء بجريدة عنونت بالخط الأحمر الغليظ على الصفحة الأولى : المرازيق يصدرون عريضة يتبرؤون فيها من منصف المرزوقي ، بكيت كل ما في جسمي من دموع . وهل من وضعية أفظع وأمرّ على رجل مثلي أن يتهم في عروبته وفي شرفه وأن يعلن أهله وذويه على صفحات الجرائد تبرّؤهم منه .لحسن الحظ لم تلبث هذه الضجة أن هدأت فعاد القوم لرشدهم وبادر المرازيق بعريضة مضادة أوسع من التي هاجمتني يرفضون فيها تخويني ، إذ لم يكن هناك عاقل واحد يصدق أنني صهيوني متستر وأقبض الشيكات الضخمة من أمراء الكويت . والمضحك في الأمر أن مجلة "العربي" صدرت سنة 1992 بمقال لمحمد الرميحي رئيس تحريرها آنذاك يقدمني كمثال ساطع على المثقف العربي الذي ارتمى في أحضان صدّام و نادى بتدمير الكويت .ورفض الصحافي النابه نشر التكذيب وهذا حال التخلّف العربي أيا كان المستوى والبلد . ولم يكن حظّي مع اليساريين أحسن .وربما كانوا يعتبروني برجوازيا صغيرا لرفضي الماركسية والحال أنني كنت أقرب منهم ألف مرة للشعب في عملي اليومي بالقلعة وأفقر مدن وقرى الساحل ، و قلّ منهم من كان يعلم أنني زرت الصين في بداية السبعينيات لأدرس نظام الكومونات وطريقة تقديم الخدمات الصحية وأنني طبقت في القلعة بعض الأفكار التي استلهمتها من قلعة الاشتراكية آنذاك؟

إلا أن الخصام الأكبر وحتى العداء كان من دون شك مع الإسلاميين ، النجم الصاعد في الساحة السياسية طوال الثمانيات وأذكر ان بعض الأصدقاء حثني على حضور درس لإمام معروف يدرّس على ما أتذكّر ، في مسجد صاحب الطابع ، لآخذ فكرة عن خطاب الإسلاميين . وخرجت من "الدرس " مصدوما من خطاب فجّ عنيف عنصري لا يختلف هيكليا عن خطاب أقصى اليمين الفرنسي لكن بتغليف ديني .ومن حسن الحظّ ان الخطاب الإسلامي التونسي اليوم قيادة وقواعدا تغير بصفة جذرية .

وفي بداية الثمانيات كنت أجوب البلاد مغتنما الحرية النسبية التي كنا نتمتّع بها آنذاك ، أحاضر في التربية الصحية وفي حقوق الإنسان . وأذكر أنني دافعت في إحدى هذه المحاضرات ، في باجة على ما أذكر ، عن ضرورة فصل الدولة عن الدين لأن كل التجربة التاريخية لكل الشعوب تظهر بان المزج بينهما وقع دوما لصالح الدولة التي تستعمل الدين كغطاء للاستبداد .فالدولة بطبيعتها سياسة والسياسة صراع مصالح والدين داخل هذه المنظومة ليس اكثر من ورقة بين يدي فرق سياسية . كما قلت أنّ الدولة تستمدّ قوتها من السلطة **pouvoir** في حين أن الدين يستمدّ قوته من السلطة المعنوية **autorité** . ويومها ثارت ثائرة مراهقين ملتحين اشبعوني شتما .فانزعجت كثيرا لما عاينته من تعصب وجهل وغرور بدا لي منذرا بكل الأخطار مستقبلا، ولمّا اتهموني بالكفر والالحاد أضحكتني التهمة الغبية .

ومن أين لي أن أفسر لهم أنني تلميذ الرازي وابن الجزار في الطب وتلميذ ابن عربي والحلاج في العقيدة وهل كانوا يفهمون طبيعة إيماني لو أنشدتهم مقولة معلمي الأول :

لقد صار قلبي قابلا كل صورة..... فمرعى لغزلان ودير لرهبان

وبيت لأوثان وكعبة طائف ولوحة توراة ومصحف قرآن

أدين بدين الحب أين توجهت.....ركابي فالحب ديني وإيماني

كان مصدر معارضتي الشديدة آنذاك للإسلاميين سياسيا وليس عقائديا . فالعروبي فيّ ، كان يتذكّر أن الإخوان

أطلقوا النار على الرئيس في الإسكندرية سنة 1954 ، وأن أمريكا كانت وراء الحلف الإسلامي برئاسة الملك فيصل لضرب الحركة الوحدوية ، ثم من أين لي قبول حركة ستقسّم الأمة إلى مسلمين و"ذمة "

أما الاشتراكيّ فكان يتذكّر أن السلطة كانت في السبعينيات وراء الجماعات الإسلامية في الجامعة لضرب اليسار . وعلى كل حال فإنه لم يكن بإمكان ديمقراطي لا يخشى شيئا قدر خشية عودة الاستبداد في شكل العن وأشدّ هو الاستبداد باسم الدين ، قبول تيار يشكك في حقوق المرأة ويريد استنباط قوانين العصر من قوانين القرن الأول للهجرة. كان هذا ولا يزال أمر يرفضه عقلي بمنتهى القوة . فأنا أفصل بين الوفاء للتراث والتشبث به . إنني وفيّ للرازي، معجب به، ممنون له، ولكنني لا اشعر أنه يطالبني بإثبات الوفاء بتطبيق علاجه للسل الذي كان يداويه بالخمر وإنما بمواصلة كفاحه من أجل الصحة بلغة عصري وتقنياته .وهكذا اعتبرت من واجبي التصدي لهذا التيار وكانت هناك أكثر من فرصة لأعلن رفضي لمقولاته منها مقالة نارية نشرتها في الصباح سنة 1988 عنوانها "من أجل مريم ونادية " أؤكّد فيها أن التعدي على حقوق المرأة خطّ احمر لا يجب على الإسلاميين تجاوزه . لكن المعركة السياسية الحقيقية وقعت سنة 1986 عند نقاش ميثاق الرابطة واندلاع قضية البنود الأربعة "المنافية "للدين (الإعدام، التبني، المساواة بين الجنسين، الحدود). وكان داخل الهيئة المديرة من يريدون تمييع هذه الفصول لأنهم كانوا يخطبون ود الإسلاميين لأسباب تكتيكية وكنت من أشدّ الرافضين لأيّ تنازل في الموضوع وأذكر أن علاقاتي بممثل الإسلاميين المرحوم سحنون الجوهري (الذي مات في ظروف فظيعة في سجن الدكتاتورية في منتصف التسعينيات)كانت صعبة للغاية وهو ما آسف له اليوم فقد أخطأت فهم الرجل مثلما اعتقد انه أساء فهمي. ولا ألعن ولا أمر من سوء الفهم المتواصل بين البشر و كأنه قدرنا.

وتشاء سخرية الأقدار أن تجعل مني أشدّ المدافعين عمّن كنت أعتبرهم ألدّ أعدائي وأنا فجأة على رأس رابطة حقوق الإنسان وفي مرحلة من أخطر مراحل تاريخ تونس الحديث.

***

كان دخولي للرابطة سنة 1980 بمجرد الصدفة أو هكذا خيّل لي .فقد جاءني صديق يطلب مني الانخراط فسألته عن هذه الجمعية التي كنت أعجب ببلاغاتها التي تصدر في" الرأي "فشرح لي نشأتها وأهدافها فلم أتردّد في دفع معلوم الاشتراك ونسيت الموضوع لكثرة وتنوع مشاغلي .

وسنة 1984 اتصلت بي بعض قيادات الرابطة لدخول الهيئة المديرة في قائمة وفاق .وكنت قد اكتسبت آنذاك عبر مقالاتي في "الرأي" والاحتكاك بالطبقة السياسية والنشاط الطبي والاجتماعي، مكانة مشرفة في المجتمع. ولم أتردّد في قبول العرض دون ان يخطر ببالي لحظة واحدة أن الرابطة التي كان الكل يقسم فيها بأغلظ الأيمان أنها ليست مؤسسة سياسية ستكون الباب الكبير الذي سأدخل منه سياسة رفضت دخولها عبر الأبواب الصغيرة للأحزاب الصغيرة . والحق يقال أنني بقيت مدة طويلة عضوا "لتزيين المحفل" فقد كانت الهيئة المديرة بين يدي الجازي والشرفي والشماري أساسا .ولم يكن الأمر يضيرني كثيرا بما أن المواقف كانت جيّدة و لم يكن لي متسع من الوقت لأبحث عن موقع قدم وأنا غارق إلى الأذنين في تجربة الطب الجماعي ومشاكل جمعية المعاقين والكتابة الفكرية في مشاكل الديمقراطية وحقوق الإنسان بجانب الأبحاث العلمية والإشراف على عدد متزايد من أطروحات الدكتوراه. ولم أكن أتدخل بقوة إلا في حالات نادرة منها نقاش ميثاق الرابطة.

وإبان هذه الفترة بدأ مسلسلي مع "القضاء" وأحلت على المحاكمة أكثر من مرة بسبب مقالاتي في "الرأي" وخاصة من اجل كتاب "دع وطني يستيقظ" التي صادرته السلطة.

وجاء انقلاب بن علي لأتلقاه بترحاب ، لكل الأسباب السياسية المعروفة ، ولسببين خاصين أولهما توقف التتبعات ضدي وإطلاق سراح كتابي ، وثانيهما رجوع الحاج محمد الذي اقسم انه لن يطأ ارض تونس ميتا أو حيا تحت حكم بورقيبة *

وكانت المبادرات الأولى التي أخذها بن علي تجعلني أتساءل هل من الممكن أن تصدق نظرية "هيجل" حول ما في التاريخ من سخرية أي هل بإمكان جنرال البوليس هذا أن يرسخ النظام الديمقراطي.

والحق أنني لم أكن مناهضا للرجل وإنما كنت حذرا دون إفراط. ولا شكّ أنه لو جاءني أحد اليوم ببعض مقالاتي في تلك الفترة لأنكرت نسبتها إليّ ، خاصة تلك التي نشرتها في جريدة الصباح سنة 1988 على ما أذكر، والتي عنونتها (تصوروا)، "الجنوب يا بن علي" وكنت أقصد بالجنوب كل المناطق الفقيرة المنسية من البلاد. نعم سأرفض نسبتها

إليّ، حتى تحت التعذيب، مدّعيا أنها مؤامرة خبيثة لتشويه سمعتي سنة 2000.

وليس لي في الواقع أن أخجل من حسن نيتي وحتى سذاجتي ، بقدر ما يجب على بن علي أن يخجل بما فعله بكل الأماني التي علقها عليه رجال نزهاء والتي لو أطهر جدارته بها، لدخل التاريخ من أوسع أبوابه بدل أن يطرد منه من الأبواب الخلفية.

ثمّ تزايد ابتعادي عن النظام وتصاعدت حدة نقدي له يوما بعد يوم أمام ما كنت أراه من عودة تدريجية لأركان النظام البورقيبي إلا أن القطيعة الحقيقية لم تحصل إلا بمناسبة انتخابات 89 وكان لتزييفها وقع الصاعقة على نفسي ، رغم أنني كنت آخر من يودّ أن يفوز بها الإسلاميون .

كان الخط الأحمر ولا يزال مبدأ سيادة الشعب وقد رفضت ولا أزال بكل قوة ترهات "النضج" و"التمشّي" والقطرة قطرة فمن هم هؤلاء الناس الذين يحق لهم تقييم "النضج" وتحديد سرعة المسار الديمقراطي إنهم جزء ضئيل من الشعب نصبوا أنفسهم أولياء وأوصياء عليه وليست لهم أدنى شرعية أو حق في تنصيب أنفسهم وليس في النظم السياسية المعاصرة غير شرعية تاريخية في الأنظمة الملكية وشرعية الصندوق في الأنظمة الجماهيرية . وكل ما ينتج عن تزييف إرادة الشعب هو بالنسبة لي الخيانة العظمى ولا خيانة عظمى غيرها لأنه مصادرة حق مقدس وإذلال الناس والسخرية منهم .

ومنذ ذلك التاريخ أصبحت خصما صلبا للنظام أنظر باستياء متعاظم إلى دخول قيادات الرابطة إلى الوزارة وتصاعد ضرب المؤسسات الهشة التي استطاع شعبنا تكوينها ضد بورقيبة في بداية الثمانيات ، واستتباب النظام الدكتاتوري بأركانه المعروفة من شخصانية وتزييف الانتخابات وتقييد الصحافة ثم تدميرها وبداية انتشار الفساد والاستيلاء على المؤسسات أولها اتحاد الشغل .

ويمكنني الآن فهم العيب الهيكلي الذي إنبنى عليه نظامنا السياسي منذ "الاستقلال "فبورقيبة، ومن بعده خلفه بقي عاجزا إلى آخر لحظة عن الارتقاء بمنصبه إلى دور ممثل الشعب بكل اختلافاته وتعدديته المتعاظمة.

لقد بقي دوما رئيس حزب منتصر أي رئيس جزء من التونسيين وبقي الجزء الآخر في وضع الذمي السياسي الذي يقبل بوجوده طالما لم يتطاول على أسياده وإلا أتهم بان في قلبه مرض وانه شرذمة ضالّة بل وحتى خائنا بما أن الشعب اختزل في الحزب والوطنية في الولاء لرئيسه .

والإشكالية في مثل هذا النظام أن الجزء غير الممثل، لا يختفي لسواد عيني السلطة، وإنما يبقى يتململ منتظرا ساعته .وهذا يتطلب من السلطة جهازا بالغ التكاليف المادية والأخلاقية لمنع الجزء المقموع من الظهور إلى السطح بجعجعة طواحين الإعلام الرسمي والقمع المتواصل والتعذيب والانتخاب المزيف وما ينجر عن ذلك من ردّ فعل يؤدي إلى مزيد من إحكام القبضة فمزيد من المشاكل. وهكذا يدخل المجتمع في صراع صامت يتخلله انفجار براكين الغضب.

ولا خروج من هذا النظام إلا عند ما نقبل تعدديتنا الموضوعية ونسمح لها بالتعبير السياسي.

ولا حل أمامنا غير نظام سياسي يجعل رئيس الجمهورية خارج الأحزاب و فوقها وممثلا لكل التونسيين من الإسلاميين إلى الشيوعيين مرورا بكل الطيف القومي والديمقراطي والدستوري والليبرالي و له السلطات الكافية ليمثل كل الشعب ويسهر على تمتع الجميع بالحقوق والحريات ويكون حكما في الصراعات السياسية ،فيمثل حالة وسطية بين الرئيس المطلق الصلاحيات كما هو الأمر في الدكتاتوريات المتخلفة والرئيس المنعدم الصلاحية كما هو الأمر في الأنظمة البرلمانية.

وكان أمرا مؤثرا أن أرى أخيرا "أين في الناس" يغرس مرفقه في رمل دوز كما كان يحلم لعقود. وقد توفي في مراكش بضعة اشهر بعد زيارته الأولى والأخيرة، وكأنه قضى وطره من الدنيا. وكادت أن تنشب حرب أهلية على جثمانه إذ كان الفرع التونسي يرغب في دفنه في تونس والفرع المغربي يصر على دفنه في المغرب .وحسمت النقاش قائلا أن كل ارض هي دار العروبة والإسلام والوالد كان له صديق مراكشي حميم، فلا بأس أن يرقد بجانبه ليواصلا إلى الأبد نقاشهما وضحكهما حول الوطن والنساء والأطفال.

ويستكمل جهاز السلطة التنفيذية المتوازنة برئيس حكومة يكون رئيس الحزب الأغلبي وله السلطات الكافية لإدارة

شؤون البلاد تحت رقابة برلمان ممثل للتعددية الحقيقية والمصالح المتناقضة لفئات المجتمع.

كان دخول الشرفي الوزارة بعد انتهاء المؤتمر الثالث للرابطة في ربيع 89، والحال أن الدكتاتورية كانت قد خطت خطوات كبيرة في التمركز ، أمرا بالغ الخطورة على سمعة الرابطة، خاصة أنه كان الرئيس الثاني الذي يدخل الوزارة، ناهيك عن كاتبين عامين سابقين. وأذكر أنّ الرجل أكّد لي انه لا نصيب من الصحة لشائعات توزيره أسبوعين قبل دخوله الوزارة .ولو قيل لي أنه سيبقى في الوزارة طيلة سنوات خمس عرفت موت قرابة الثلاثين تونسيا تحت التعذيب وإعدام ما لا يقل عن عشرة وحلّ الرابطة (وهو رئيسها الشرفي) وعسكرة جامعة هو وزيرها، لما صدّقت. وهذا الرجل من نوع السياسيين الذين يؤمنون أو يفتعلون الإيمان بأن الغاية تبرر الوسيلة والحال أنني أؤمن إيمانا راسخا انه يستحيل تحقيق غايات نبيلة بالوسائل القذرة او بالسكوت عن مثل هذه الوسائل. ولا شكّ أن انتخابي في أبريل 89 كان نتيجة حسابات معقدة منها أنني كنت المستقل الوحيد آنذاك الذي كانت تتوفر فيه شروط متضاربة منها البعد عن النظام ، وهو ما كان من شأنه وقف مسلسل التوزير، ومنها العداوة المتينة مع الإسلاميين الأمر الذي كان من شأنه طمأنة اللائكيين، ومنها توهّم البعض أنني مثقف ساذج سيسهل قيادته.

وربما كان هؤلاء أول من خيّبت ظنهم فيّ عندما اتضح أنني سأكون ربآن السفينة وليس راكب الدرجة الأولى الكسول الذي يترك الأمور بين يدي أهل الحل والعقد. ولم البث أن خيبت ظنّ اللائكيين أيضا لموقفي "الشاذّ" من الإسلاميين. والوحيد الذي لم أخيب ظنّه فيّ، هو بن علي الذي انطلق حقده حال التصريح الأول لمجلة "حقائق" بأنني لن أكون وزيرا، وان الرابطة كانت وستبقى مستقلة، وأنها ستقوم بدورها في مراقبة تدهور الحريات والتصدّي لكل انتهاكات حقوق الإنسان.

والحق يقال، إن آخر ما كان يخطر على بالي، أن العاصفة ستهاجم الباخرة حال استلامي الرئاسة وكأن الأقدار تترصد بي أو تريد امتحاني.

وكانت الزوبعة الأولى حرب الخليج ولم أخرج منها مثخنا بالجراح إلا لأواجه الحرب التي اشهرها النظام ضدّ الإسلاميين وكانت حربا ضروسا، شرسة، قذرة، وضعت الرابطة ووضعتني كرئيسها أمام خيار مصيري . ولقد كانت سنوات 91 -94 حقا رهيبة في تاريخ تونس ولا أظن أن تاريخنا المعاصر عرف لها مثيلا من حيث مستوى عنف الدولة وإرهابها للمجتمع وضرب كل مؤسساته بتلك الحجة المعروفة لكل الدكتاتوريات: لا صوت يعلو فوق صوت المعركة.

وفي بداية الحملة أسرّ البعض في أذني: "فخّار يكسر بعضه"، لنترك السلطة تخلصنا من الإسلاميين وسنتخلّص نحن يوما منها. وقال لي آخرون لتكن إدانة الرابطة في الحدود الدنيا حتى لا تستهدف هي الأخرى.

ولم اقبل بالطبع بأيّ من هذه النصائح، وجاء موقف الرابطة في إدانة المداهمات والتعذيب والمحاكمات الجائرة قويا واضحا متواصلا لا لبس فيه ، فأدهش السلطة واربكها ثم أثار حفيظتها ثم حقدها ثم قرارها بتدمير المؤسسة والمسئول الأول فيها وإنه لمن التجنّي على التاريخ القول بأنني كنت الوحيد للدفاع عن هذا الموقف فقد كان الغالب داخل الهيئة المديرة سنة 1991 لكن من الإنصاف القول أن من ثبتوا عليه إلى سنة 1994 كانوا يعدون على أصابع اليد الواحدة . ومن نافل القول أن ما سمته السلطة بالتحالف مع الإسلاميين لم يغير في شيء موقفي الدائم من ضرورة الفصل الصارم بين الدولة والدين وتحقيق المساواة التامة بين المرأة والرجل واستنباط قوانين المجتمع والدولة من التشريع العالمي والإعلان العالمي لحقوق الإنسان.

وإن لم أتردد لحظة، أو أندم، في اتخاذ موقف كلّفني الغالي والنفيس فيما بعد، فلأنّ أهم القيم بالنسبة لي وفاء الإنسان لمبادئه ومنطلقاته وثباته عليها وعدم التناقض مع النفس وهذا أمر بالغ الأهمية بالنسبة لرجل علم تربى ذهنه على الانصياع لكل ترتبات المنطلقات الأولى سواء فرضتها مبادئ الهندسة أو قوانين الفيزياء، أو المنظومة الفكرية لحقوق الإنسان.

من أين لي التردّد والإعلان العالمي يقول بواضح العبارة أنه لكل شخص الحق في كذا وكذا، أي أنه للإسلاميين، ككل التونسيين لا أكثر ولا أقلّ، الحق في الحرمة الجسدية والحق في المحاكمة العادلة والحق في الرأي والحق في التنظم السلمي والحق في المشاركة في الشأن العام والحق في الانتخاب بل وفي الحكم إذا أراد ذلك شعب سيد مصيره.

ومن بين الدوافع إيماني أيضا بأن السياسة كالرياضة أخلاق أو لا تكون. وثمة من كان يأتيني بالنصح : لا تنس

دوما إدانة أفكار الإسلاميين والتباين معهم. وكنت أردّ بأن هذا ما سأفعله بالضبط عندما يكونوا في وضع يسمح لهم بالردّ عليّ، لأنني لا أحارب جريحا ملقى على الأرض.

ومن نافل القول أن السياسة "رياضة" أقرب إلى Rugby بفضاضتها وقسوتها وخشونتها ، منها إلى الشطرنج. ولكني أؤمن بأن حتى هذه الرياضة القاسية بحاجة إلى قواعد و إلا استحال اللعب وأصبح عراك سكارى . وثمة من يمارسون السياسة على أنها لا -أخلاق أو لا تكون. وهكذا يصبح تصريف الشأن العام مثلما هو الحال داخل كل فرد منا، صراعا بين أخلاقية جماعية ولا- أخلاقية جماعية.

وعلى كل سياسي أن يختار الصف الذي يمارس منه هذا الشأن العام مع العلم أن تاريخه وحده مع الخوف والطمع هو الذي يكشف الصف الذي اختار . وقد اخترت بكل وعي أن أمارس السياسة كأخلاق أو لا تكون، معتقدا إلى اليوم أن هذا الخيار "الساذج" يضمن المصلحة العامة ويضمن على الأمد الطويل وفي العمق حتّى المصلحة الخاصة. ولا شكّ أن حساسية الطبيب أمام العذاب الإنساني لعبت دورا في تعاطف متزايد مع الإسلاميين وهم في أوج محنتهم .ولم يكن من الممكن أن أسكت عن كل تلك الصرخات التي كانت تدوي من كل التقارير والرسائل والشهادات التي تصلنا بتدفق غزير.

مما سهّل كثيرا الموقف، وأظهر فيما بعد صواب الخيار، أن الإسلاميين رغم ما تعرضوا له من مظالم يندى لها الجبين وشراسة الاستفزاز المسلط قصدا وعمدا لجرهم لردّ الفعل ، لم يركنوا يوما إلى العنف. وكان هذا من حسن حظ تونس مقارنة مع ستراتجية قطاع واسع من الحركة الإسلامية في الجزائر. هكذا بقيت الآلة البوليسية الضخمة التي أسسها الدكتاتور تدور في الفراغ .وكان لا بدّ لها من عمل لتبرير وجودها فتوجهت للديمقراطيين كما كنت أتوقع من البداية لتنتهي يوما بالتهام الدكتاتور ونفسها كما هي القاعدة عبر التاريخ. فمصيرها ذلك الذي وصفه إيليا أبو ماضي

وانظر إلى النار إن الفتك عادتها.....لكن عادتها الشنعاء ترديها

تفني القرى والمغاني وهي ضاحكة.....لجهلها أن ما تفنيه يفنيها

اكتشف اليوم بمرور الزمن أن هناك سبب آخر كان يحركني من الأعماق للوقوف بجانب الإسلاميين .ولم أع به إلا عندما فرضت عليّ الظروف أن أعيش في وسط من لون واحد هو الوسط الائيكي المتشدّد .

وكم كنت أشعر بالغربة داخله .وإنها لمعضلة بالنسبة لرجل اجتماعي مثلي أن يعيش دوما غريبا بين كل من عشت بينهم من قوميين ولائيكيين وإسلاميين واشتراكيين وثمة دوما شيء هام يفصلني عنهم في الوقت الذي ثمة شيء هام آخر يجعلني أقرب إليهم مما أتصور ومما يتصوّرون .مما كان يجرحني ويحرجني بالأساس موقف أناس سميتهم الأصوليين الائيكيين وكنت اسمعهم يتكلمون عن الإسلاميين وكأنهم زبانية جهنم .إلا أن الإحراج كان ينقلب بسرعة إلى استنكار شديد وأنا اسمعهم يطعنون في ثوابت الأمة ومقدساتها وكأنهم جزء من أقصى اليسار الفرنسي أو حتى أقصى اليمين وليسوا توانسة . كانوا ولا يزالون يثيرون استغرابي لسطحية تغرّبهم وسطحيّة تعرّبهم خاصة وهم يحقّرون كل ما هو عربي مسلم بتلك اللغة الهجينة التي أشاعها في شعبنا كمرض لغوي معدي، من رفضوا أن يكونوا عربا واستحال عليهم أن يكونوا غربيين .

وما من شكّ أن الباكلوريا الفرنسية والثقافة الفرنسية والصداقة الحقيقية التي أكنها للشعب الفرنسي ، كانت بمثابة نوافذ وشرفات إضافية وبعض من نفيس الأثاث لبيت هندست شكله ورفعت جدرانه "الصادقية " ، وتحمله دعامات بالغة المتانة والصلابة تضرب في أعماق خمسة عشر قرنا من حضارة الآباء والأجداد .

وهذه الحضارة ليست لغة ومعتقدات وأطروحات فحسب وإنما هي ايضا تلك العادات والتقاليد التي بكونها لا تكون للشعوب وللأفراد هويّة . فممّا طبع شخصيتي بطابع لا يمحى، ذكريات طفل تربى في حجر جدّ يعود من "الغوط" في آخر النهار ليجلس على الحصير الرث في بهو الحوش الفقير مرتلا القرآن إلى صلاة المغرب ويأخذني معه لصلاة العشاء التي كان لا يصليها إلا على في ضريح الولي "المحجوب " واحيانا في مسجد "الغوث" الجدّ الآخر للمرازيق.وفي فناء المسجد الصغير كنت ألعب مع أترابي إلى أن تنتهي صلاة الشيوخ فأعود مع جدي عبر كثبان الرمل والليل قد أرخى سدوله على القرية الساكنة والنجوم تتلألأ في سماء سحرية الجمال لا تتطاول على أبهتها أضواء المصابيح الكهربائية المجهولة آنذاك.

لا أذكر أن الوالدة كانت تحتفي بيوم قدر احتفائها بالمولد النبوي الشريف. وكانت فرحتها واضحة وهي تعد العصيدة

البسيطة بالزيت والسكر بشغاف القلب لا باليدين (أما عصيدة الأكابر التي يسمونها عصيدة الزقزقو فلم تعرف طريقها لبيتي إلا مؤخرا ، تنتظر أياما من يأكلها ، فالحبّ ليس فقط للحبيب الأول و إنما أيضا للعصيدة الأولى) وهناك "اللّمة " يوم عيد الأضحى بعد صلاة العيد في "المحجوب"جامع الآباء والأجداد ، عندما تجتمع عائلة (أو قل قبيلة)البدوي وفيها أكثر من خمسين نفرا يفترشون الأرض حول قصاع الكسكسي. وثمة ألف ذكرى وعادة ليست ذات بال إذا أخذت منفردة ، ولكنها تتجمع كالخيوط لتنسج "زربية" الشخصية . وليس للمرء غير هذا النسيج ليصنع منه ذاته فإذا لم يثق فيه أو احتقره ارتكب خطأ بناء ذات هشة غير واثقة من نفسها وارتكب خطيئة احتقار القاعدة والبوصلة التي تسمح باستكشاف الذات والعالم والآخر .وهكذا كان الكلام الذي اسمعه حولي يثير في شعور من يرى أحدا يبصق على وجه جده ويمسح قدميه في برنسه .

إن كان خصام العروبيين والإسلاميين قاسيا أحيانا ، فإنه خصام من داخل نفس المنظومة الحضارية لا من خارجها. هو خصام حول الطريقة المثلى لتحقيق نفس الهدف أي تجدد الأمة وتواصلها . فنحن غصنان نبتا من نفس الجذع ، كلّ في اتجاه . والفارق أنهم يريدون التواصل كاملا ويناورون في حجم التجديد، ونحن نريد التجديد كاملا ونناور في حجم التواصل ، والزمان وحده يقرّر غير آبه بإرادة هذا أو ذاك ، حدود كل تواصل وعمق كل تجدّد.

***

ولم تكن قضيّة الإسلاميين ، خاصة في موضوع التعذيب المجرم ،الخصومة الوحيدة بين الرابطة وبين السلطة وإنما كانت أبرزها. وليس هذا موضع كتابة تاريخ العشرية المظلمة (ويمكن للقارئ أن يعود لكتاباتي السياسية الموجودة على الموقع)

ومن أهم ملفات الصراع المرير حرية الصحافة .ففي 25 جويلية 1991عرضت على الهيئة المديرة مشروع بلاغ حول التردي الرهيب للصحافة في بلادنا وكان إدانة شديدة اللهجة لعملية اغتيال مع سابق الإضمار للصحافة ومن خلالها للفكر والثقافة واعتداء على الذكاء والخلق والإبداع . والحق أن خنق حرية الصحافة كانت ولا تزال حجر الزاوية في نظام حكم على شعبنا أن يبقى "مضرّجا بالصمت "، من فرط خوفه من تداول الناس للموضوع الجوهري وبيت القصيد في هذه الدكتاتورية (وهو اليوم حديثهم المفضّل رغم كل محاولات التسلّط لقتل الإعلام) : الفساد أي الجريمة الاقتصادية التي استفحلت في تونس بشكل لم يسبق له مثيل واتخذت أشكالا من الخطورة والتعقيد ما لا يكاد يصدّق .

وكان هذا البلاغ نقطة النهاية في محاولة استدراجي لمواقف اقل "تصلبا " وقررت السلطة على اثره استعمال العصا الغليظة وهكذا فتح مسلسل الاضطهاد الذي لم ينتهي إلى حد تاريخ كتابة هذه السطور .

ففي صائفة 1991 وجدت على مقدمة السيارة عصفورا اسودا مذبوحا وطلبت من أعضاء الهيئة المديرة معاينة "الرسالة " . ثم أوقفني البوليس لاستجواب أول كان يراد منه إرهابي في فبراير 1991، وفي جوان 1992 قررت السلطة حل الرابطة بعد أن رفضت قانون الجمعيات .وكنت أفشلت كل المخططات التي كان يدعو لها البعض داخل الهيئة المديرة للتعامل "المرن " مع القانون، مردّدا لزملائي :تموت الحرة ولا تأكل بثدييها . وإبان سنة حل الرابطة، أحلت مع 17 مثقفا على القضاء ، بتهمة تكوين جمعية لم تعمر سميناها "لجنة الدفاع عن المساجين السياسيين" وواصلت العمل الرابطي عبر لجنة سرية تكونت من سهام بن سدرين ومصطفى بن جعفر والطاهر شقروش وعبد الكريم العلاقي الذي هرب منها عندما تكشف القمع .

وكان عمل هذه اللجنة واستثمارها لقرب انعقاد مؤتمر الأمم المتحدة لحقوق الإنسان في فيينا ، سنة 1993 سبب تراجع السلطة في قرار حلّ الرابطة . وفي جوان من نفس السنة تحولت برفقة مصطفى بن جعفر وسهام بن سدرين لفيينا لنشرح الوضع في بلادنا، تلاحقنا جحافل جرارة من المخبرين .

وعشية الرجوع إلى تونس، تلقينا مكالمة من مجهول تعلمنا بأنه سيتم إلقاء القبض علينا حال وصول المطار وربما كان أمل المخابرات أن نبق في النمسا وان نطلب اللجوء السياسي وقرّرنا الرجوع ولم نجد في المطار إلا الأصدقاء الذين بلغتهم الإشاعة وهبوا قلقين لاستقبالنا. وسنة 1993 بدأ مسلسل اعتقال أخي محمد علي وتلفيق التهم ضده في محاولة بائسة لضربي. وفي نهاية مارس 1994 دخلت السجن بعد الانقلاب الذي دبرته السلطة داخل الرابطة وردي عليه بالترشح لرئاسة الجمهورية انتقاما لضرب الرابطة و أيضا لكسر هالة القداسة المفتعلة حول هذا المنصب وللتذكير بأن النظام الجمهوري يعطي لكل مواطن الحق في الترشح له (وكم ضحكت سنة 1999 لمحاولات السلطة تنظيم انتخابات "تعددية" بعد أن جعل ترشحي البقاء على الوضع القديم مستحيلا). ثم أطلق سراحي في شهر

جويلية نظرا للحملة الدولية وخاصة لتدخل مانديلا الذي كنت عرفته في اجتماع للجنة نوبل للسلام دعيت إليه في أوسلو سنة 1991.

هكذا خرجت من السجن بعد أربعة اشهر من الزنزانة الانفرادية، لأجد حولي خرابا بلقعا. فقد قررت زوجتي مغادرة تونس نهائيا خوفا على سلامة البنتين . وسقطت وجوه بارزة من المعارضة وحركة حقوق الإنسان في خدمة الدكتاتورية عادت اليوم تعلن التوبة وتطلب العفو .

وبدأت أصعب مرحلة من حياة كانت دوما بالغة الصعوبة .فقد منعت من السفر ومن الهاتف وطردت من المستشفى الجامعي ومن مصحات الضمان الاجتماعي في الوقت الذي كانت فيه كل كتبي ممنوعة. وضرب حولي طوق رهيب من العزلة .وكنت أعلم إذا دق الجرس أن الزائر شرطي أو الهاشمي جغام صديق المحن أو شقيقي مخلص (ومن الأصح أن أقول عنه أيضا صديقي مخلص)

وكنت أتمثل دوما بقول أبي العتاهية

ما الناس إلاّ مع الدنيا وصاحبها.....فكيفما انقلبت يومها انقلبـوا

يعظمـون أخ الدنيا وإن وثبت.....يوما عليه بما لا يشتهي وثبوا.

والحق أن هذه العزلة الرهيبة التي دامت من 94 إلى 97 كانت أغزر السنوات كتابة وتفكيرا. فقد أغلقت الكلية أمامي كل أبواب البحث العلمي ورفضت لي خلق شهادة التخصص في الطب الجماعي فلم يبق أمامي سوى الكتابة السياسية . و خلال هذه العزلة كتبت "الاستقلال الثاني " الذي طبع ببيروت ولاحقته السلطة حتى في لبنان ثم "الإنسان الحرام " الذي نشره أصدقاء في المغرب بتمويل من الأستاذ عبد الرحمان اليوسفي .

لم ألبث أن استهلكت كل ما في وطابي من الأفكار السياسية والحقوقية وأنا رجل أكره أن أردّد نفس الكلام .وهنا جاءتني فكرة تجربة نوع جديد علي من الكتابة أي الأدب .واستهوتني فكرة كتاب على شكل الأيام لطه حسين -وكان مع "مذكرات نائب في الأرياف "لتوفيق الحكيم من نوع الكتب القليلة التي أعيد قراءتها على الأقل مرة كل سنتين وأكاد اليوم أحفظ كل جملة فيها .

والحق أنني كنت أشعر بالحاجة الماسة لمثل هذه الكتابة التي يسمح فيها للذات بالتعبير عما تمر به من محنة وما تقاسيه من آلام وكنت دوما أنصح مرضاي عندما تضيق بهم السبل بكتابة ما يشعرون به لمن يعرف الكتابة وبالتنفيس عن الكرب بالحديث مع الأصدقاء وللجميع ووضع مشاكلهم بين قوسين والتوجه لنشاط لا علاقة له بما يواجهون من صعوبات .

كان الحصار البوليسي طيلة هذه السنوات فرصتي الذهبية للقيام بوقفة تأمل كنت أعرف أنها لن تطول وربما لن تتوفر لي فرصة "ثمينة "أخرى مثلها لو عادت الحركية المجنونة التي طبعت دوما حياتي .

لكن الفكرة الأولى تحوّلت من كتابة نسخة باهتة من "الأيام" إلى تفكير حول إشكاليات أساسية حول طبيعة هذا العالم الذي نعبره إبان رحلة الحياة ؟ ما هذه الذات التي تتبلور فيه وتبلوره ؟ ما هذا الآخر الذي بدونه لا تكون الذات ولا يكون العالم ؟ ما معنى وجود هذه الإنسانية التي نرتحل في لغتها وقصصها وهذيانها بنفس الصفة التي نرتحل فيها في الفضاء الحسي للعالم ؟ ولم تكن الذكريات إلا الخيط الرفيع للقيام بعملية تنظيم واسعة النطاق كتلك التي تشعر بها أحيانا عندما تتجاوز فوضى الأوراق والكتب فوق المكتب حدا لا يطاق .

كان بداخلي فوضى فكرية كبيرة لكثرة ما تزاحم داخلي من صور وأفكار ورؤى متناقضة ، بحكم نهمي المرضي للقراءة وموقعي كرجل يعيش داخل أكثر من ثقافة وعلى حدود أكثر من علم .

وهكذا جاءت الكتابة كمحاولة لتنظيم كل الصور المتضاربة والرؤى لأقوام وعصور ومنهجيات متباعدة متناقضة علني اخرج برؤيا يرتاح لها العقل وترضى عنها العاطفة .

ويتمخض عن كل هذا مشروع لا زال متواصلا بلغ إلى حدّ الآن خمسة أجزاء وسّميته "الرحلة " وهي روايتي لرحلة

الحياة كما تجربها ذات هي في آن واحد ذاتها وكل ذات .

وثمة من أصدقائي من نصحني بعدم نشر "الرحلة " أو بنشرها باسم مستعار حتى لا تختلط الصور .

فنحن في عصر التخصص ولا يمكن لأطباء أن يحملوك على محمل الجد وأنت تكتب الأدب والفلسفة . ولا يمكن لرجال سياسة أن يحملوك على محمل الجدّ وأنت تفكر في مواضيع فلسفية وتبحث في الطب .

وكان خوف أصدقائي أن يحملني الجميع على أنني إنسان مذبذب غير مستقرّ على حال لا يعرف ما يريد ويخبط خبط عشواء في كل ميدان . والحق أنني حاسبت نفسي كثيرا من هذا المنطلق لأكتشف أن مساري المعقّد لم يكن يوما نتيجة تناقضات داخلية وإنما نتيجة تفكير منطقي صارم . فعند رجوعي لتونس لم يكن هناك مجال للتألق في البحث العلمي التقني كما كنت ربما مارسته لو بقيت في الغرب لغياب الأجهزة والطاقم والتشجيع في عصر أصبح فيه البحث العلمي الفاعل قضية إمكانيات رهيبة ليست في متناول البلدان الفقيرة .و كانت المشاكل الملحة للأطفال المعاقين تفرض توجّها آخر للبحث العلمي . وهذا البحث هو الذي فتح باب الالتزام الطبي والاجتماعي الذي فتح باب الرابطة الذي فتح باب الالتزام السياسي الذي فتح باب الاضطهاد والعزلة الذي فتح باب الكتابة الأدبية كتنفيس عن الضيم والكرب ووقفة تأمل لاستعادة القدرة على المواصلة .

ثمة خيط رفيع يعطي لمساري الفكري وحدة صماء وهو أنني لم اكتب يوما حرفا حتى في الطب إلا وكان تفاعلا مع إشكاليات ملحة و بحثا لها عن حلول . وكانت المشاكل بحكم مهنتي وظروفي من مستويات مختلفة ولم يكن بإمكان تفكير منطقي يرى الترابط في مختلف المستويات أن يكتفي بالتفكير او التعامل مع الظواهر المعزولة أو مع جزء من معادلة .

لا شكّ أنني كنت نقيض التقني المتخصّص ونقيض مثقف البرج العاجي .فقد أدرت الظهر باكرا للنموذجين السائدين محاولا بلورة نموذج آخر لمثقف مختص في ميدان وملتزم بقضايا محيطه ومتفتح على كل ميادين الثقافة من فكر وأدب وموسيقى لا كترف وإنما كجزء لا يتجزّأ من تفعيل مهارته كمختص و كملتزم .

وكم يكلف هذا النموذج من كفاح مرير وأنا اليوم كسباح يجاهد حتى لا يغرق في خضم بحر متلاطم الأمواج من الإشكاليات والمنهجيات ومعارف تتطور كخلايا السرطان .

وإبان هذه الفترة تواصل بعض النشاط السياسي ، في إطار مجموعة صغيرة جدا كانت تضم بالأساس مصطفى بن جعفر وسهام بن سدرين وعمر المستيري وراضية النصراوي وحمة الهمامي ومختار الطريفي وانور القوصري ثم نجيب الحسني حال خروجه من السجن . وكان موضوع الحسني شغلي الشاغل تلك الفترة ننتقل بصفة منتظمة للكاف لزيارة عائلته ونعرف العالم أجمع بمأساته –المتجددة والمتواصلة حين كتابة هذه السطور –ولما خرج نجيب بدأنا الدعوة إلى أول عريضة وطنية للعفو التشريعي العام استطعنا نشرها سنة 1996 وفي سنة 1997 باءت بالفشل أول محاولة مضنية لبناء جبهة ديمقراطية .فقد استطعت ان اجمع في حلقة واحدة نجيب الشابي ومصطفى بن جعفر وحمة الهمامي وعمر المستيري وصدري الخياري ودام إعداد الأرضية اكثر من سنة وكان من المزمع ان نعلن عن الجبهة يوم 9افريل 1997 . وسقط كل شيء في الماء بعد ان انسحب نجيب الشابي في آخر لحظة ، من المشروع وهو ما أدى إلى استقالة سهام بن سدرين من حزبه .

وبعد هذا الفشل قررت ترك حلم بناء هذه الجبهة السياسية والاهتمام بما كان في متناولي أي تجديد الحركة الحقوقية بما هي جزء هام من العمل السياسي . وفي جويلية 1997 وزّعت على اصلب مناضلي حقوق الإنسان وثيقة عنوانها" من أجل تفعيل حركة حقوق الإنسان في تونس" أدعو فيها إلى تكوين هيكل ثاني بالنظر إلى قصور الرابطة الواضح . وفي 26سبتمبير 1997 اجتمع ببيتي في سوسة كل من مصطفى بن جعفر وسهام بن سدرين وحمة الهمامي وراضية النصراوي واحمد الكيلاني وعلي بن سالم وعمر المستيري وصدري الخياري ونجيب الحسني وأنور القوصري .وتم الاتفاق على بعث المجلس الوطني للحريات . وبدأت من يومها اجتماعات مكثفة لصياغة النصوص واختيار الهيئة الأولى و اتفق الجميع على أن أكون الناطق باسم المجلس . وكان واضحا بالنسبة لي أن السلطة لن تعترف أبدا به لكن الأصدقاء أصروا على أن نسجل الطلب ليصبح قانونيا بعد ثلاثة اشهر إذا لم ترفض السلطة كتابيا حسب القانون . وتم الاتفاق على أن نواصل حتى في صورة توصلنا برفض كتابي من وزارة الداخلية .

ويوم 10 ديسمبر ذهبت مع علي بن سالم لولاية مدينة تونس لتسجيل المجلس وفي القلب حسرة من انسحاب اليسار من العملية لأسباب تتعلق بتكوين هيئة الاتصال . ولم أستغرب رفض السلطة ولكنني استغربت تراجع البعض في قرار

العمل كمؤسسة حتي في حالة رفض الاعتراف وتحدي السلطة .وكانت فكرتهم ان نبقى مجموعة تحت التأسيس وأن نعيد الطلب كل ثلاثة اشهر تحت اسم آخر . وبالطبع رفضت الفكرة جملة وتفصيلا وقدمت استقالتي من المجموعة وانسحبت لمدة شهرين إلى أن وقع التراجع في التراجع وصدرت أولى بيانات المجلس كبيانات تحمل اسم المجلس وأمكنني امضاؤها باسمه .

وكان أول تحدي للسلطة وأول مثال في البلاد على الجهر بالعصيان المدني السلمي لقوانين منافية للدستور .وانطلق نشاط المجلس ليدخل ثورة في الساحة السياسية الراكدة وخاصة عندما نشر لأول مرّة قائمة طويلة في الجلادين . وكان عمل الهيئة المكونة من عمر المستيري ونجيب الحسني وعلي بن سالم وصدري الخياري وتوفيق بن بريك وجمال الدين بيدة بحق عمل ريادي .

ومن يومها تكثّف الضغط بصفة رهيبة.

فإلى جانب تواصل المنع من الهاتف ومن السفر ومن النشر دخل محمد علي السجن مرتين ستة اشهر في 97 و98 بعد قضائه لسنتين سجن من 93 إلى 95 . وكان إدخاله السجن دوما متزامنا مع الإعداد للمجلس والإعلان عنه . وكانت مأساته حملا ثقيلا على الضمير .ومن حسن الحظ أنه كان بالغ الشجاعة والصبر بل كان هو الذي كان يخفف من عقدة الذنب التي كنت أشعر بها تجاهه وأنا أعلم الناس انه كان يؤخذ بالسجن بدلي. وكانت هناك نية واضحة من السلطة للتنكيل بي وبه . كان لا يبقى شهرا في سجن أزوره فيه إلا ونقلوه إلى سجن بعيد وهكذا قمت بسياحة سجنية عبر البلاد ، أراقب عن كثب ما يعانيه الناس البسطاء وهم ينتظرون الزيارة أمام سجون قابس والقيروان وبرج الرومي والكاف وسليانة . كانت بحق أصعب فترة في حياتي وقد تضافرت عليّ كل الهموم وكنت أسلي النفس بترديد مقولة الكاتب الفرنسي "اندري جيد": إن قيمة كل حياة في ما تتكلفه من ثمن .

يوم 4 جوان 1999 وقع اختطافي في قلب العاصمة من قبل مجهولين وكنت واثقا أنه سيتم اغتيالي .ولم أتنفس الصعداء إلا عندما قادني مختطفيّ إلى وزارة الداخلية وأحلت أمام حاكم التحقيق بحالة ايقاف وبعد يومين وفوجئت باطلاق سراحي . وعلى امتداد سنتين علقت بي ثلاث قضايا في أوقات متلاحقة آخرها تلك التي صدر فيها حكم السجن سنة يوم 30 ديسمبر 2000.

إبان هذه المحاكمة الصورية طلبت من المحامين عدم الترافع إلا في فساد القضاء ورفضت استئناف الحكم لاقتناعي بأن القضاء في تونس جزء من الدكتاتورية مهمته إضفاء صبغة الشرعية على تجاوزات الاستبداد. وكنت أردد حولي دوما أن كل صراعنا يتعلق باستبدال الغين بالقاف لنجعل يوما من القضاء المستغل قضاءا مستقلا. وبقدر ما كان النظام يستشرس في التنكيل بي، في محاولة يائسة وبائسة لإرهابي وإذلالي ، بقدر ما كانت تتزايد مظاهر التقدير الآتية من العالم أجمع . ففي سنة 1987 تحصلت على جائزة "سكانو" الايطالية الشهيرة وجائزة "هيومن رايت واتش "الأمريكية سنة 1994 التي تسلمتها باسمي ابنتي الكبرى مريم في نيوروك وسنة 1996 ذهبت ابنتي الصغرى نادية إلى "دوبلن "عاصمة ايرلندا لاستلام جائزة "كامب " العالمية لحقوق الطفل . وفي نفس السنة استطعت لأول مرة استلام جائزة تمنحها الأكاديمية الأمريكية للعلوم لرجال العلم الذين تميزوا بنضالهم من أجل حقوق الإنسان .

ومنحت تلك السنة الجائزة لفيزيائي من كوبا وطبيب عربي اكتشفت أنه توأمي السوري وأنا توأمه التونسي هو الدكتور هيثم مناع .فهو طبيب وكاتب غزير العطاء ومناضل صلب من اجل الحريات في سوريا والوطن العربي شبع اضطهادا ونفيا ومن يومها جمعتنا أوثق علاقة ممكنة بين محاربين في نفس الخندق .وعلى ضفاف نهر البوتوماك وضعنا أسس اللجنة العربية لحقوق الإنسان التي كنت أول رئيس لها من سنة 1997 إلى سنة 2000 ولعبت ولا تزال برئاسة الدكتورة فيوليت داغر دورا هاما في العطاء الفكري والنضال السياسي من اجل عروبة ديمقراطية متحررة وإنسانية .ولا أدري لماذا أشيع السر بأن اللجنة ولدت على ضفاف "البوتوماك" مغذيا بارانويا بعض القومجيين ومؤكدا شكوكهم أن حقوق الإنسان مؤامرة أمريكية .لذلك فسأدّعي أن اللجنة العربية ولدت على ضفاف دجلة أو بردى أو النيل بعد أن تعرفت على الدكتور هيثم مناع في حفل تكريم أقامته الأكاديمية العربية للعلوم على شرفنا. وبالطبع كان يركض وراءنا في شوارع بغداد ودمشق والقاهرة رجال الصحافة لا رجال مخابرات. أمّا الحكومات العربية فقد رحبت بولادة اللجنة لعلمها بأنه ليس في وسعها التعرض لها وأنها شر لا بدّ منه وربما لأنها أدركت أن لها فيها مصلحة لأهمية الجمعيات المدنية في التنبيه والنصح ونزع فتيل العنف.

وبعد إفاقتنا من هذا الحلم نعود إلى سياق الحديث ، حيث سحب مني جواز السفر لقرابة الخمس سنوات حال رجوعي من واشنطن. وفي سنة 2000 شرّفتني الشبكة الإفريقية لحقوق الطفل بتسميتي رئيسا للجمعية في مؤتمر دربان

بجنوب إفريقيا .وبعد أشهر قليلة وأنا من جديد ممنوع من السفر، ذهبت نادية لتتلقى جواز سفر الحرية الذي منحني إياه البرلمان الأوروبي. وفي 2001 تلقيت جائزة "هامت – هلمان" التي تمنح في أمريكا للكتاب المضطهدين. وكانت مفاجأة لي أن اعلم أن "هامت" و"هلمان" هما كاتبان أمريكيان، تعرضا للاضطهاد الشديد في سنوات الماكرثية في الخمسينيات وكنت أعتقد أن اضطهاد حرية الفكر من اختصاص المتخلفين وحدهم وخاصة العرب.

وفي البداية كانت مظاهر التكريم هذه تغذّي نرجسية لا تشبع ، شعارها مثل جهنم هل من مزيد.

وبمرور الزمن والتقدم في تجربة الحياة، يفهم المرء أخيرا أن عقدة التفوق ليست إلا عقدة نقص لم تتم تسويتها في الوقت المناسب، لأن عقدة النقص وعقدة التفوق وجهان لنفس قطعة النقد.

وببطء شديد تتسلل إلى الوعي فكرة أخرى أن الفضائل التي يفاخر بها الناس إذا دققت فيها، ليست بهذا الصفاء الذي يوهمونك به وتوهمهم به، وأن لأقذر الرذائل أسبابا وحتى مبرّرات.وقد يكون تشبعي بهذه الفكرة ناجم عن عقدين من العمل الطبي. وإبان سماعك لآلاف القصص تكتشف عمق حاجة الناس للمحبة والاعتراف وما يعانونه من آلام وهم يبحثون عنهما بحث البدوي عن الماء والكلأ في الصحراء.

رويدا رويدا تتسلّل لذهنك فكرة غريبة إن أكبر الفضائل وأحقر الرذائل إذا نظرت إليها من موقع مرتفع، تسطحت مثلما تتساوى جبال الهملايا وأعماق المحيط الهادي إن نظرت إلى الأرض من الفضاء. وهذا الموقع المرتفع هو فهمك أخيرا أن للمساواة مستوى هام ، يجادل فيه البعض ، هو مساواتهم في الكرامة والحقوق ومستوى أهم، لا يجادل فيه أحد، هو مساواتهم أمام صعوبة العيش وصعوبة الموت.

هكذا أصبح ما أبديه من صلابة ورفض وإدانة واستهجان لنظام سياسي موجّه لقواعد مغشوشة، للعبة لا أخلاقية، تسحب الاعتبار من كل التونسيين ، وأولهم من يخدمون هذا النظام، وليس لأشخاص أيا كان موقعهم منه.

ثم يصبح المرء أبا وأستاذا ، لا يعي في البداية بأن لآرائه ومواقفه انعكاسات عميقة على الذوات التي يتعامل معها .وفي البداية تكتشف هذا التأثير من الوجهة السلبية أمام ما تحدثه مظاهر التكبر والعنجهية وعدم الاعتراف بالآخر من دمار نفساني. ولأنّ احتقار الحقير بلا قيمة فإنّ الدمار الذي يمكن أن تحدثه هو بأهمية القيمة التي يوليها لك الناس. ثم تكتشف الوجه الوضاء لهذه القوة التي لم تعرفها فيك وأنت ترى ما يحدثه احترامك وتقديرك من برد وسلام على النفوس المعذبة وكيف يؤدّي ترفقك وتشجيعك إلى إنقاذ وضعيات وصلت الطريق المسدود . ويتضح لك أنه كلما تزايدت قيمتك بين الناس كلما كان لاحترامك وتقديرك وتشجيعك تأثيرا أكبر في بناء الذات الأخرى أو شفائها مما ألحقه بها احتقار الآخر أو جلد الذات من أضرار جسيمة .

وهكذا تغيرت علاقتي بالتكريم الذي احصل عليه وقد فهمت أنه إذا استعمل لتغذية نرجسيتي فهو كالماء الآسن حبيس قعر البئر ، وإن استعمل لردّ الحرية والاعتبار للناس ، كان الماء الزلال لجدول رقراق يغذّي ويحيي ويطفئ لهيب العطش . وهكذا انتهيت إلى قناعة أنه ليس لي من دور أهمّ من استعمال ما لي من مصداقية ومن شأن بين الناس لأحملهم على ردّ الاعتبار لأنفسهم وردّه لبعضهم البعض ، مردّدا إلى آخر نفس في حياتي: نعم ستطأ الأقدام العربية أرض المريخ ، وحتى يحصل هذا مارسوا حقوقكم ولا تطالبوا بها ، لا تجلدوا ذاتكم ، لا تقسوا على أنفسكم وعلى وطنكم ، ارفعوا رؤوسكم فأنتم أصحاب عقل و شعور وكرامة لم يهبها لكم أحد وليس لأحد قدرة على سحبها منكم .وكم يستبدّ بي الحلم بأمة ردّ على امتداد أرضها الاعتبار للناس ، للمؤسّسات، للذكاء للثقافة ،للقانون، للعلم والعمل .

وكم أحلم بوطن لم يعد فيه اسم والي ومعتمد وعمدة وكاتب عام لجنة تنسيق ونشرة أخبار الثامنة وجريدة "الابراس " ويوم ابتزاز وطني، ولا فتات "بيتزرايا العهد الجديد تعبر عن ولائها الأزلي لصانع التغيير " وحزب دولة ودولة حزب ورئيس دولة هو رئيس حزب ، ومقهي بجانب مركز شرطة ، بجانب مقهى، بجانب "المنطقة "، بجانب ثكنة التدخل السريع ، بجانب مقهى ، بجانب بيتزريا العهد الجديد الآنفة الذكر. وليس في وطني هذا رعايا وإنما مواطنين لا يتحكم في رقابهم زعيم يستقبل ويبعث برقيات تهاني ويتلقى برقيات إعجاب من العالم بأسره ويوصي ويبدي بالغ اهتمامه ويشمل بعنايته ويرعى ويعطي تعليماته بخصوص الصيد البحري و الموسم الفلاحي و ثقب الأوزون والجفاف والجوع في العالم وتربية الجيل الجديد على قيم العهد الجديد من تسامح وإنكار للذات وديمقراطية وتعددية وحسن التصرف في الأموال العمومية .

وكم يبدو هذا الحلم بعيدا عن التحقيق ، خاصة في هذه الأيام التي تستعد فيها الدكتاتورية لجرّ الشعب إلى استفتاء

يكرس استعباده و يحاصرني فيها البوليس وأنا ممنوع من العمل، من السفر ، من الهاتف ، من النشر ، ومن كل نشاط سياسي انتظر كل ليلة أن يأتوا لإلقاء القبض عليّ لتمضية سنة السجن التي حكموا علي بها ويتردّدون في تنفيذها .ومع ذلك فإن معنوياتي لم تكن يوما مرتفعة كما هي اليوم لأنني اعرف أن تونس هذه موجودة في الواقع وليست مجرد أضغاث أحلام .

وكما أن العاصمة موجودة على بعد 140 كلم من سوسة ، بحساب امتداد الفضاء ، فإن تونس الديمقراطية موجودة على بعد عشر سنوات أو عشرين سنة على أبعد تقدير في ما سيأتي من الزمن .

هنا تمرّ فوق معنوياتي غمامة سحابة كآبة عابرة .كم هي قريبة واحة الكرامة والحرية بمقياس زمن الشعوب وكم هي بعيدة بمقياس زمن إنسان أنهكه مشي عشرين سنة وهو بين سندان الرمضاء ومطرقة الشمس .وفي كل الأحوال ومع الاعتذار لأبي فراس ، أقول حتى ولو متّ ظمآنا فلينزل القطر على وطني .

أعلم أن هذه الواحة التي تتجه إليها أفئدتنا وخطانا ليست جنّة عدن وإنما هي وطن بمشاكل جديدة ضخمة منها تصفية تركة الاستبداد وترويض الديمقراطية وتنظيم الاعتراف المتبادل والتنافس السلمي . ولكن شتان بين مشاكل الملاحة في البحر بين العواصف ومشاكل التأرجح الكسول فوق مستنقع .

وإن لم اصل إلى واحة ، كم أنا متشوق لمشاكلها ، لأن الطريق طال ، لأنّ الحياة القاسية لم تسعفني بالوقت الكافي لاسترجع في ظلالها أنفاسي ، فالثموا باسمي قدميّ تونس وقدموا لها التهاني بشفائها من مرض الدكتاتورية وأملي أن تتواصل أطول وقت ممكن من عمر الشعوب تنعم بالصحة والعافية .

قولوا لها وفيت بديني لك وأنت أم باعت حليّها لأدرس، ووفيت بديني لك وأنت أب صعب المراس رقيق القلب لا يرضى بغير القمم مؤطئ قدم ، ووفيت بديني لك وأنت مدرسة علمتيني الحروف الأولى، ووفيت بديني لك وأنت كل مريض عالجته وكل تلميذ علمته وكل مظلوم وقفت وراءه صامتا ساعات طويلة وهو بين يدي قضاة نسوا ان الولاء يكون لشرف الذات وشرف المهنة وشرف العدالة وشرف الوطن لا لاستبداد ليس له ذرّة شرف .

وإنني لخالص الذمّة معك يا تونس . لم أحبّ سواك وقد تمثلت فيك أرض كل العرب وكل أرض الله الواسعة ولم احبّ اكثر منك شيئا او أحدا ، لأنك السماء والبحر والرمل ، لأنك الزيتون والكرم والنخل ، لأنك المرأة والصديق والطفل ، لأنك عناد الحياة وإصرارها ،على تجاوز كل نقص وبلوغ كل كمال ، على محو كل قبح وبلورة كل جمال ، على تعويض كل الآلام وتحقيق كل الآمال .

مرفوعيّ الرأس ، تعيشوا تعيشوا ، ويحيا الوطن .

سوسة ماي 2001

مع نلسن منديلا في مؤتمر ضد الكراهية - مؤسسة نوبل في أوسلو سنة 1990

ملحق 1

في جويلية 2001 تمّ طر دي من الكلية وبعد ستة أشهر حكم عليّ القضاء المستغلّ بسنة سجن مع وقف التنفيذ (وذلك غيابيا لأنني رفضت الوقوف أمام الموظّف البائس الذي كان يلعب دور القاضي). وضيق عليّ النظام بكيفية لا مثيل لها حيث أصبحت لا أتخرّك بدون سيارة شرطة إلا داخل بيتي . وأخيرا اضطررت للخروج إلى المنفى في ديسمبر 2001 بعد أن عرضت علي جامعة باريس تدريس الطب حيث أوجد لليوم

وكما للاضطهاد بقية فللنضال أيضا بقية إلى أن تشرق شمس الحرية ويبدد نورها الظلام الذي تحتمي به الخفافيش

باريس 29-12-2003

ملحق 2

باريس 20 أكتوبر 2006

رسالة لأصدقائي وقرائي تحية أخوية ونضالية وكل سنة وأنتم بخير

لا أسمع كلمة ثقافة إلا وأشهرت " : Goebbels تحفظ ذاكرة المثقفين الصرخة الشهيرة لوزير دعاية النظام النازي مسدسي". لا غرابة في الأمر والثقافة منذ الأزل القلعة الحصينة التي يلتجئ إليها الفكر الحرّ في أوقات العسر.. والتي . ينطلق منها لإعادة تشكيل المجتمع الحرّ في أوقات اليسر

فالاستبداد لا يحقق مراميه إلا بالأمن الثقافي الذي يضمن . لهذا شكّل ضربها ،أو ترويضها ، هدفا استراتيجيا لكل دكتاتورية ولمثل هذه السياسة ثمن، هو .له التحكم في الأفكار والقلوب، بموازاة مع الأمن البوليسي الذي يضمن له استكانة الأجساد مضمونا، التصحر الفكري والفني ، وأسلوبا تفشي القبح والبذاءة والرداءة. يكفي أن يقرأ المرء الجرائد التي يتحكم فيها نظام العصابات المسلط على تونس ، أو ما يسمح ببثه في الوسائل السمعية البصرية ، ليقيس مدى الانحطاط الحضاري الذي أوصلتنا إليه الدكتاتورية في أقل من عشرين سنة ...والظاهرة للأسف عربية وليس فقط تونسية . ومن ثمة استبطنت منذ بداية التسعينات، أن الحرب ضد هذه الآفة والعاهة ، لا يمرّ فقط بالدعوة لقيم العروبة والإسلام والمشرّع العالمي، أو بالعمل المتواصل على بناء الجمهورية والنظام الديمقراطي، وإنما بالمساهمة في الإنتاج الثقافي بما هو جزء لا يتجزّأ من المقاومة. من هذا المنظار، اعتبرت دوما كتبي الفكرية والأدبية البعيدة عن المجال السياسي مثل "الرحلة" من قلب النضال السياسي . ،خاصة وأن لهذا الكتاب قصة طويلة مرتبطة أوثق الارتباط بهذا النضال

فقد أصبحت بعد خروجي من السجن سنة 1994 معزولا في بيتي تحت المراقبة اللصيقة للشرطة ، ومعزولا عن العمل الطبي بعد حلّ قسمي، ومحاصرا في الكلية (التي عزلوني منها نهائيا سنة 2000) ، وممنوعا من السفر ومن الهاتف . هكذا أمكنني، من باب مكره أخاك لا بطل، التفرغ للتفكير داخل ما كنت أسميه السجن على نفقة السجين. لم تكن لديّ أدنى رغبة في مواصلة الكتابة عن الديمقراطية وحقوق الإنسان . أما برنامج متابعة الكتابة الطبية بالعربية فقد توقف بحكم منعي من العمل الميداني الذي كنت أجرب فيه أفكاري واستقي منه نظرياتي . أضف إلى هذا الإحباط الشديد الذي أصابني بعد أن أعدم الدكتاتور سنة 1991 الألف نسخة التي طبعتها مؤسسة البحث العلمي من " المدخل إلى الطب المندمج ". وهذا كتاب في ألف صفحة استغرق عشر سنوات من العمل المضني وتحصل على جائزة المؤتمر الطبي العربي سنة 1989 تسلمتها من الرئيس الجزائري آنذاك الشاذلي بن جديد. ربما كان هذا الحادث بداية تأجج رفض عميق لنظام ورجل ينتقم لنفسه بتدمير كتاب علمي كان بداية مشروع إنشاء سلسلة من الكتب الطبية بلغة الضاد ، وكنت وزعت مواضيعها على مساعدي وبدأ العمل فيها في بداية التسعينات. لكن إرادة الدكتاتور الذي يتحكم لليوم في رقابنا شاءت العكس وأجهضت المشروع .الضخم

قلت لم لا أجرب الكتابة الأدبية ،التي لم أغامر يوما بدخولها، لمجرد الترويح عن النفس والتفريج عن الكرب الشديد الذي كنت أعاني منه نتيجة وضع الوطن ووضعي الشخصي . أذكر اكتشافي متعة الكتابة الأدبية لأنها تعفي من ضوابط الكتابة العلمية الصارمة ومن عصبية الكتابة النضالية . أذكر دهشتي وأنا أكتشف مخزونا هائلا من المشاعر والأفكار والصور تراكم على مدى نصف قرن و كانت الذاكرة تفيض به وبأمس الحاجة لشيء من تنظيمه ، كما هو الحال تماما عندما تتراكم الكتب والمجلات في مكتبك وتأتيك يوما رغبة تنظيمها على الرفوف. والحق يقال أن تدبيج " الرحلة" شكّل مغامرة فكرية ،

بالمعنى الأصلي للكلمة ،لأنه كان توغلا دون رؤية واضحة في مناطق مجهولة داخل ذاتي وبلا أدنى علم أو تقدير حقيقي للصعوبات التي تنتظرني. كان الطموح عند انطلاق العمل صيف 1995 كتابة سيرة ذاتية ، والنموذج " الأيام" لطه حسين الذي قرأته عددا لا أحصيه من المرات.

لكن العمل تحوّل تدريجيا من الإشكالية الخاصة إلى الإشكالية العامة، أي من تفحص تجربتي الشخصية، بما هي تجربة شخصية، إلى تفحصها كما يفعل عالم الأعضاء عندما يدرس بدقة جسما بشريا واحدا لاكتشاف النموذج العام الذي بنيت عليه كل الأجساد. ربما كان سبب هذا التحول تشبعي بالمنهجية العلمية التي كنت أدرّسها في الكلية وعمق تأثيرها في تناولي للأشياء ، حيث لا قيمة للشيء إلا في كونه الدليل على ظاهرة عامة تتجاوزه والمؤشر على عمل قوانين سرمدية تحركه واكتشافها هو الأهم . هكذا تبلور شيئا فشيئا هذا النص الذي لن يكون من السهل تصنيفه. هو كتاب قد يقبل به الأدب أو الفلسفة أو حتى العلوم الإنسانية ... وقد يطرد من كل هذه الميادين باعتباره جنسا هجينا لا ينتمي لأي حقل معرفي محترم ومعترف به .

إلا أن الكتابة لم تتطور في برج عاجي، ولو كان محروسا من طرف سيارات الشرطة الرابضة ليلا نهارا أمام بيتي. فالنضال السياسي لم يتوقف من خروجي منذ السجن صيف 1994 إلى خروجي من تونس شتاء 2001 . هكذا تعددت في ، والمؤتمر من أجل الجمهورية 1998هذه الفترة الإيقافات والمحاكمات، خاصة بعد تأسيس المجلس الوطني للحريات سنة سنة 2001.أضف إلى هذا التهديد المتواصل بالقتل ،مثل المرة التي وضع فيها مجهولون غرابا مذبوحا على مقدمة سيارتي،أو تنفيذهم للتهديد عندما خربوا سنة 1999 محرك سيارتي لتشتعل فيه النار وأنا على الطريق إلى قريتي دوز. هذا ما أعطى للكتابة صبغة استعجالية كأنها لا تتحمّل لحظة واحدة من التأخير لقرب نفاذ الزمن.

و"الخراب والتأسيس" ليؤمن توأمي هيثم مناع "كنت أغتنم كل الفرص لتهريب نصوص شبه جاهزة مثل "الاستقلال الثاني في باريس ظهورها للنور. وفي مثل هذا الجوّ المشحون بالأخطار والمصاعب هرّبت الصيغة الأولى للرحلة عشية أزمة خانقة بين المجلس الوطني للحريات والنظام سنة 1999 انتهت باختطافي من الشارع من قبل البوليس السياسي وإطلاق سراحي بعد يومين من الاحتجاز في حفرة نتنة في أقبية وزارة القمع والتعذيب. وقد غامرت دار الأهلي في دمشق مشكورة بنشر هذه الصيغة المختصرة في جزء واحد هو الذي كتبته بين 1995و1997 لكنني لم ألبث، وقد فك الطوق حولي نسبيا، من العودة إلى الكتابة وقد أصبحت مفتونا بضخامة العمل وآفاقه الشاسعة وتحدياته المخيفة ،وكانت الكتابة تتواصل أحيانا إلى الفجر... ولا معين سوى القهوة وموسيقى باخ وشوبرت . هكذا توسعت المخطوطة الأولى بين 1997 و2001 إلى خمسة كتب (الإحرام العالم ، الذات ، الآدميون ، الآدمية) تمّ تهريبها لهيثم عشية الحكم عليّ صيف 2001 بسنة سجن مع وقف التنفيذ، و نشرتها الأهالي كاملة في 2003.

وفي أواخر سنة 2001 ، اضطر الدكتاتور تحت ضغط الرأي العام الوطني والدولي للسماح لي بالخروج إلى المنفى. آنذاك أعدت قراءة المخطوطات المنشورة ، فلم ترضني في شيء، إذ تضافرت الكتابة السريعة مع انعدام مراجعة جدية للأخطاء لتصدر النصوص بكيفية بدت لي مراجعتها ضرورية. أضف إلى هذا أنني رجل من طبعه ملاحقة مخطوطاته بالتنقيح حتى والمطبعة على وشك الانتهاء من العمل . ثم هناك النضج والتغيّر الذي يتواصل من يوم لأخر فما بالك من سنة لأخرى . لذلك قررت وأنا أعيش لأول مرّة منذ سنوات في جوّ من الأمان النسبي إعادة مراجعة النص بصفة جذرية وكتابة الجزء السادس(االغريب) والشروع في الجزء السابع(الرؤيا) معتقدا بنوع من السذاجة أنني في مأمن من بوليس الدكتاتور واضطهاده المتواصل منذ قرابة العشرين سنة .

وكأنني مصاحب بلعنة متواصلة حيث ها أنا مجددا في نفس الوضع الذي عشته دوما ، أي ها أنا مضطر لوضع الكتاب على الموقع قبل اكمال الجزء السابع والأخير. فقد أعلنت عن عودتي لأرض الوطن يوم 21 أكتوبر لكي لا تبقى دعوتي للمقاومة شعارا أجوفا يطلقه من المنفى شخص جالس على الربوة . وما أن علمت السلطة بقراري حتى بادرت ببعث استدعاء للمثول أمام قاضي التحقيق بتهمة التحريض على ....العنف وإحالتي حسب قانون محاربة الإرهاب والتهمة تكلّف من عشرة إلى عشرين سنة سجن. وبالطبع قررت التمسك بقراري ورفض مرة أخرى التهديد والترويع والإخافة(وهي من التقنيات المحببة بل الوحيدة التي يستعملها الدكتاتور في حل المشاكل السياسية لمجتمع متحضر) والقبول بكل التضحيات من أجل كرامة التونسيين وحرياتهم .

ما من شك لدي أنه سيأتي يوم تنهار فيه هذه الدكتاتورية الحقيرة وأنها ستبقى مضغة مقززة في الأفواه وأن كتبي ستعود إلى المكتبات العمومية التي انتزعت منها في منتصف التسعينات، وأنها ستعرض بكل حرية على رفوف المكاتب التجارية دون المشكلة الحقيقية أن أم زياد تنبأت لي بعد قراءة . أن يخشى أصاحبها هجوم البوليس السياسي اوالتصحيح الجبائي المخطوطة أن مثل هذا الكتاب، حتى ولو نشر ووضع على الرفوف، مؤهل لفشل مؤدب ،وان قرّاءه سيحسبون على الأصابع . للأسف أعتقد أنها على حق . فنحن نعيش اليوم في تونس والوطن العربي عصر الصدمة بالصورة، والتجهيل

بالصورة و الركون إلى الجاهز والمعلب وسريع الاستهلاك في كل الميادين . حكى لي الأخ حسين العودات الناشر والمناضل السوري أن الإنسان العربي، حسب إحصائيات الناشرين، يقرأ أقل من القارئ الأفريقي ، أنه يخصص عشرين دقيقة سنويا للقراءة، أننا ننتج ونحن 300 مليون نسمة من الكتب أقل ما تنتج اليونان ، أن أحسن كتاب فكري يطبع منه نسخة ولا تباع كلها 3000.

إنها حقا أرقام مرعبة تبعث على الفزع . من أين لنا إنكار أننا أمة أمية لا تقرأ ولا تكتب رغم أن أول أمر صدر لها هو اقرأ وأن اسم كتابها المقدس هو القرآن. لكن قناعتي أنها مرحلة عابرة، فلا الأمية، ولا التجهيل ،ولا الصدمة بالصورة، ولا التصحر الثقافي الذي يسهر على دوامه من يكرهون الكتاب والكّتاب، قدر الأمة إلى الأبد . وعلى كل حال ثمة جنس غير القرّاء المهووسون بالكتاب أيا كان العصر والنظام وكثافة المسلسلات في التلفزيون : قابل للانقراض.

وفي الانتظار لا خيار لكل الكتّاب التونسيين و العرب غير مواصلة الكتابة حتى ولو بدا الأمر عملا عبثيا. فلو توقفنا جميعا من فرط الإحباط واليأس لازداد الوضع سوءا و لأصبحنا أمة عاقرة بكل معاني الكلمة . لا خيار لنا إذن غير بذر البذور ولو في الصحراء، والترويح عن الكرب بالتشبث بفكرة أننا نكتب للأجيال المقبلة التي نأمل ألا تكون على حال الأجيال التي شكلها استبداد مجرم قتل في هذه الأمة كل ما هو حي وجميل ومبدع وخلاق.

وبانتظار تحقيق أمل قد يتحقق ،وقد يذهب هو الآخر أدراج الرياح ، لا خيار لي لكسر حاجز الرقابة وإيصال النص إلى أكبر عدد ممكن من بقايا هذا الجنس غير القابل للانقراض، سوى وضعه في الفضاء الافتراضي عشية رجوع محفوف بكل الرحلة" قرّاء يكتشفون فيها سعيهم في " الأخطار، بنفسية من يرمي إلى البحر برسالة داخل زجاجة. السؤال هل ستصادف الدنيا ولو باختلافات جزئية مع القصة التي تروي ؟

هل ستحدث معجزة التلاقي بين ذاتين تؤرقهما نفس المشاكل وتتبادلان من وراء ستار الغيب إشارات الطمأنة. إنها بعض من سيل الأسئلة التي تلاحق كل كاتب غامر بالكتابة . لكن محكوم عليها أن تبقى مثل كثير من أسئلتنا دون جواب. وفي حالة ضياع الزجاجة في البحر، فلا ندم على الجهد الذي تكلفته ،لأن جهد المهام التي نطرحها على أنفسنا أهمّ أحيانا من لذة وإن وصلت قارئا واحدا ابتلي مثلي بنعمة القراءة، ووجد نفسه في عمل طمح ليكون في التفاصيل سيرة ...كل تحقيق لها ذات وفي الجوهر وسيرة كل ذات ، فإن متعة تحقيق الهدف ستضاف لمتعة الجهد الذي بذل فيه .

الأهم من كل هذا أنني سأشعر بأنني دفعت بعض النزر من الفيض الذي أدين به لكل الأحياء والأموات الذين فتحوا بالحرف والكلمة أمامي آفاق الفكر والحياة . فإليهم ، هم ادلتي في كل مراحل الطريق ، أهدي هذا العمل عربون احترام شديد وامتنان عميق وإليكم أنتم أصدقائي وقرائي أهدي هذا العمل على أمل أن تجدوا فيه ولو فكرة واحدة تعينكم على صعوباته

***

تحديث : 30 مارس 2008 أكثر من سنة مرت على النص الذي تقرأ حصلت فيها أشياء كثيرة منها الرجوع للوطن في اكتوبر 2006 واعتماد السلطة ضدي اساليب بالغة الحقارة بدل إلقاء القبض عليّ حال نزولي من الطائرة كما كان متوقعا .و تمثلت التقنية الجديدة في محاصرتي في بيتي بالبوليس وإطلاق الأوباش علي في الطريق، لا أخرج من بيتي حتى تتبعني " الجماهير الغاضبة تلقائيا " بالسب والبصاق . وفي مدينة الكاف اعتدت علي هذه "الجماهير الغاضبة تلقائيا" أمام السجن الذي كان يضم سجينا سياسيا كنت أنوي التعبير له عن تضامني بالوقوف فقط أمام باب السجن وانتظار زوجته التي رافقتها يوم الزيارة .

لم أصل إلا بشق الأنفس فقد حاول البوليس منعي مرارا من الوصول للمدينة بإيقاف السيارة أكثر من عشرة مرات للتأكد من هويتي وهوية مرافقي . اخيرا قررت ترك السيارة والمشي على القدمين مسافة الخمسين كيلومتر الباقية على المدينة . وإمام إصراري تركوا السيارة المحجوزة في نقطة تفتيش تأخذني وهناك أمام السجن أطلقوا عاينا عشرات المنحرفين والمنحرفات وكادت السيارة أن تنقلب منا عندما التجانا إليها هربا من العصي . كانت لحظة عويصة رأيت فها الموت بأم عيني .

المعارضات" "ومما زاد في صعوبة الأمر أن نجاتي من الحادث تزامنت مع سكوت الرأي العام وسكوت إن لم أقل شماتة مما جعلني أقرر العودة للمنفى بعد أن اتضح لي أنني استعجلت مفاعلة ستأخذ كثيرا من الوقت . وفعلا سمحت لي السلطة بمغادرة البلد لأنه كان هدفها ومن حسن حظها وحظي أنه كان هدفي . فقد كان عليّ أن أسترجع حرية التحرك لمواصلة الحملة الاعلامية والتحريض ومواصلة الكتابة .

وهذا فعلا ما جرى وما زال يجري : معركة الاستقلال الثاني متواصلة وكذلك الحياة والكتابة وهؤلاء الذين انتصروا علي حسب تصورهم هم الذين سيتضح يوما أنهم كانوا يربحون الوقت ويجدفون ضد التيار - على كل حال هذا ما أظن وما آمل - وما أنا بحاجة لاعتقاده للحفاظ على معنوياتي

ومنذ رجوعي والرحلة دوما الشغل الشاغل : إصلاحات لا تنتهي وإضافات متواصلة واخيرا كتابة الجزء السابع الذي خاصية هائلة لفضاء الانترنت هو أنه يمكني من . قررت ان يحمل عنوان الرؤيا بدل الدليل الذي كنت قد اخترته من قبل تغيير النص طول الوقت ، مما يعني أن النسخ التي سحبت في سنة ما ليست بالضرورة آخر نسخة . لخبطة أعتذر عنها ، لكل من يريد أن يقرأ الرحلة فمن الأحسن أن يقراها دوما على الفضاء الافتراضي ، لسبب بسيط أن كتابتها مشروع لن . يتوقف إلا عندما يجعل المرض الأمر صعبا والموت الأمر مستحيلا

مع المودة

الرحلة" - مذكرات آدمي الكتاب الأول :الإحرام الكتاب الثاني: العالم الكتاب الثالث : الاستكشاف، الكتاب الرابع: " .المغامرون ، الكتاب الخامس: الملحمة، الكتاب السادس: الغريب ،الكتاب السابع الرؤيا

ملاحظة هامة **نص "الرحلة "غير نهائي للسبب البديهي أن الرحلة ما زالت متواصلة وأن التجربة تتطور والأفكار لا تكف عن التدافع في نسق مع زخم أحداث لا تتوقف لحظة. هكذا تراني أعود للنص أراجع وأضيف واحذف وأغيّر ،أحيانا مرات في الأسبوع ... طبعا ليس على النسخ الورقية القليلة الموزعة هنا وهناك وإنما مباشرة على النص الموضوع على الموقع. قد يطرح هذا إشكاليات في يوم ما إذا قدّر "النجاح" للكتاب ، أي وجود " نصوص "عديدة منها الطبعات المتوفرة ومنها التي حمّلها زوار الموقع في تواريخ مختلفة . لخبطة أعتذر عنها أصبحت ممكنة نظرا لمرونة الانترنت . ترى أي كتاب أو قل أي كتب كما نحصل عليها لو توفرت نفس الإمكانية لطه حسين وهو يكتب الأيام . المهمّ أنه طالما بقي فيّ نفس فسأواصل معالجة النص والصيغة الأخيرة له هي التي ستتوقف تغييراتها وقد توقف المغيّر نفسه عن . التدخل في ما يعنيه**